رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الجنة

الأمّة

في دلالتها العربيّة والقرآنية

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
عمان ـ تلفون ٣٧٧٧١ ـ ص٠ب ٨٥٧

بحوث قرآنية حضارية

الأمّة

في دلالتها العربيّة والقرآنية

الدكتور أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الكويت

دار عمّار
للنشر والتوزيع
عمان - شارع البتراء - قرب الجامع الحسيني ص.ب ٩٢١٦٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الجنة

مقدمـــة

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيدنا محمد وآله وصحابته ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد :

فإن المراقب العادي لما يجري في العالم من أحداث ، لا يستطيع أن يتجاهل ما يتعرض له الإسلام من حرب وكيد ، وما يعانيه المسلمون من ظلم واضطهاد . كما أن الباحث المتأمل لا يستطيع أن يغمض عينيه عن حقيقة هذه الحرب وأهدافها ، وعن مجالاتها وأبعادها ، وأنها لا تعدو في حقيقتها كونها حرباً صليبية يهودية شيوعية شاملة ، استنفر لها العدو كل ما يملك من طاقة وجهد ، ووضع في خدمتها كل ما وصل إليه العقل العلمي المبدع من اكتشاف واختراع ، وشحن نفوس أبنائه وجنده بكل ما تختزنه الصليبية واليهودية والشيوعية من حقد دفين على هذه الأمة .

وبناء على ما تقدم فإن الغزو الفكري الغربي قد وصلت طلائعه إلى بلادنا ، ولا نكاد نجد مجالًا من مجالاتنا إلا وقد تأثر منه بنصيب ، حتى في المجالات التي تعتبر من أخص خصائصنا ، فإننا نرى الغزو الفكري يحاول محاصرتها واقتحامها ، بينما لا يعرف الكثير منا أن العدو قد وصل إلى هذه المواقع ؛ لأنه مشغول عن ذلك بتوافه الحياة ، غارق في أوهامه وأحلامه ، لا يشعر بتدبير العدو وخطره ، وأن عليه أن يخوض معه معركة حاسمة في كل ميدان ، وأن عليه أن يعد لهذه المعركة التاريخية عدتها ، وأن يحسب لها حسابها .

بل إن من أظهر آثار هذا الغزو الفكري في بلادنا ما نشاهده من بعض شبابنا وأبناء جلدتنا والذين يتكلمون لغتنا ، يولون وجوههم شطر الحضارة المادية الغربية ، يطوفون حول أصنامها ، ويُخدعون ببريقها ، ويتغذون من ثقافتها ، يساعدهم في ذلك هوىً في نفوسهم وجهلٌ بثقافتهم ودينهم ، وثمنٌ بخسٌ من متاع الحياة يبيعون به أمتهم وحضارتهم .

لقد وصل الغزو الفكري إلى مجالنا الديني وثقافتنا الإسلامية ، وإنّ العدو يركز كل جهوده على هذا المعقل الحصين الذي ما زال يحفظ هذه الأمة ويمنعها من السقوط .

وعلى الأمة أن تحول دون سقوط هذا المعقل بكل ما أوتيت من قوة ، وإلّا فإنّ الكارثة سوف تكون مروِّعة .

ومن مظاهر هذه الغارة الغربية على ديننا وثقافتنا ما يقوم به المستشرقون من بحوث ودراسات في الثقافة الإسلامية وعلومها ، ومن نشر لبعض المخطوطات المتصلة بها ، وما يصاحب ذلك كله من دسٍّ وافتراء وتحريفٍ في النصوص ودلالتها ومن عبثٍ بالمصطلحات الإسلامية وتشويهها .

بل إنهم ليبعدون كثيراً فيما يذهبون إليه من أحكام ، وما يتوصلون إليه من نتائج ، حتى إنهم كثيراً ما يبيحون لأنفسهم حق الفتيا في « العربية » و « الإسلام » في جرأةٍ غريبة ومنطقٍ عجيب .

ولعلّ خير مثال نقدمه على ذلك ما ورد بشأن مصطلح « الأمة » ـــ الإسلامي ـــ في دائرة المعارف الإسلامية ، والتي هي عمل من أعمال المستشرقين العلمية ، وفي موضوع من أوسع موضوعات الثقافة الإسلامية وأخطرها ، لنرى أُنموذجاً واحداً من نماذج كثيرة تحفل بها كتب المستشرقين وأعمالهم ودراساتهم ، وكيف تشكل مثل هذه الأعمال خطراً على ثقافتنا الإسلامية وديننا الحنيف ، وَلِنَتَبَيَّنَ مدى تقصيرنا في سدِّ مثل هذه الثغرات التي ينفذ منها عدونا إلى ما يريد .

الدكتور احمد حسن فرحات

استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الكويت

بين يدي البحث

بحث «الأمة في دلالتها العربية والقرآنية» كتبتُه منذ عِدَّة سنوات، وشاركتُ به في اللقاء الفكري الكبير الذي دعَت إليه الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، والذي انعقد تحت شعار «الإسلام والحضارة».

والذي دفعني إلى كتابة هذا البحث وغيره من البحوث المشابهة ــ والتي كنت بدأتُ نشرها في مجلة حضارة الإسلام الدمشقية تحت عنوان «مصطلحات قرآنية» ــ ما لمستُه من غموض يلفُ هذه المصطلحات في أذهان كثير من المنتسبين إلى الثقافة والعلم في عالمنا المعاصر، وذلك نتيجة ابتعادهم عن معين الثقافة الإسلامية الأصيل ووقوعهم تحت تأثير التحريف العلمي والتشويه الثقافي الذي تمارسه دوائر الاستشراق الماكر من خارج الحدود، ودوائر التغريب الحاقد من داخل الحدود ..

ويعتبر مصطلح «الأمَّة» الذي نعالجه في هذا البحث أنموذجاً من نماذج كثيرة يلتقي عليها أعداء الأمَّة ــ في الداخل والخارج ــ بالتشويه والتحريف ــ مثيرين حوله غبار الشكوك والأوهام تارة، ومحاولين تجريده من معناه الإسلامي تارة أخرى.

فهاهم المستشرقون في «دائرة المعارف الإسلامية» يعرِضون له مُشكِّكين في أصله العربيِّ ومحاولين رَجْعَه إلى أصلٍ عبريٍّ أو آراميّ بحجّة أن «الأمّة» ــ في اللغة العربية ــ لفظ مشترك يأتي بمعان مختلفة، وأن هذه المعاني لا تربطها صِلة اشتقاقية في أصل المعنى اللغوي .. ثم يعرضون للمعنى الإسلامي للأمة واستعمالات القرآن الكريم ويثيرون حولها الشبهات والشكوك، ويتهمون الرسول ﷺ باتهامات عجيبة تدل على جهل عظيم وحقد لئيم ..

أما في داخل الحدود فكثيراً ما يثور الجدَل حول مفهوم «الأمّة» ومقوّماتها ، وهل يكون الدّين مقوّماً من تلك المقومات أو لا يكون ؟ وهل «الأمّة» ــ الواردة في القرآن ــ يقصد بها «الأمة العربية» أو «الأمّة الإسلامية» ؟ بل إن هناك محاولات جادّه لتفريغ مصطلح «الأمّة» من مضمونه الإسلاميّ وإعطائه مفهوماً اجتماعياً لا علاقة له بالإسلام لا من الناحية النظرية ولا من الناحية التاريخية الواقعية وكما اطّلعت على كتاب صدر مؤخراً في بيروت بعنوان «مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ» .

ومن هنا كان لا بد لهذا البحث أن يبدأ بعرضٍ لما قاله المستشرقون في دائرة المعارف الإسلامية لتصوّر مدى التشويه والتحريف الذي يمارَس ضد الثقافة الإسلامية ، ثم نعرض للأمة ومعناها في اللغة العربية مفندين ادعاءات المستشرقين ، ثم نعرض لمعاني الأمة في القرآن الكريم وللمعنى الإسلامي للأمة ، ثم نعرض لموقف الإسلام مما يسمّى بمقومات الأمة . ومن الله نستمد العون والتوفيق . والحمد لله رب العالمين .

« الأمة » في دائرة المعارف الإسلامية

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : ٤/٤١١ ــ ٤١٤/ عن مصطلح « الأمة » ــ الإسلامية ما يلي :

أمة : هي الكلمة التي وردت في القرآن للدلالة على شعب أو جماعة ، وهي ليست مشتقة من الكلمة العربية « أمّ » ، بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية « أمّا » أو من الآرامية « أمّيثا » ، لذلك فلا صلة مباشرة بينها وبين كلمة « أمّة » التي تدل على معانٍ أخرى مثل : حين من الزمن ــ سورة هود : ٨ ــ وسورة يوسف : ٤٥ ــ أو الجيل ، وهذه نجدها في القرآن أيضاً سورة الزخرف : ٢٢ وما بعدها .

وقد تكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدّم بعض الشيء ــ انظر ما يقوله هوروفتز عن نقش الصفا رقم ٥٢ ص : ٤٠٧ ــ ومهما يكن من شيء فإن محمداً أخذ هذه الكلمة واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظاً إسلامياً أصيلاً .

والآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » ــ وجمعها أمم ــ في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق . على أن مما لا شك فيه أنها تدل دائماً على فئة أو طائفة من الناس تربطهم أواصر الجنس أو اللغة أو الدين ، وهم داخلون فيمن سيحاسبهم الله على ما كسبوا في هذه الحياة ، ونجد دلائل تؤيد هذا المعنى حتى في الآيات التي وردت فيها كلمة « أمة » من غير نسبة إلى شيء ما ، مثل آية /١٦٤/من سورة الأعراف ، وآية /٢٣/من سورة القصص .

ويطلق لفظ «الأمة» للدلالة على الجيل في آيات متفرقة ــ سورة الأعراف : ٣٨ ــ وسورة فُصِّلَتْ : ٢٥ ــ وسورة الأحقاف : ١٨ ــ بل وعلى جميع الكائنات الحية ــ الأنعام : ٣٨ ــ ويراد بهذا اللفظ دائما عند إطلاقه على هذه الكائنات أنها داخلة فيمن سيُحْشرون للحساب وأنها أهلٌ للجزاء .

وأطلِقَ لفظ «الأمة» شذوذاً في آية واحدة ــ سورة النحل: ١٢٠ ــ للدلالة على فردٍ هو إبراهيم. ومعنى لفظ «الأمة» ــ هنا ــ أيضا: الامام، كما يقول علماء اللغة، أو أن ابراهيم سُمِّيَ «أمة» بصفته رئيس الجماعة التي أنشأها، وذلك بإطلاق لفظ الكل على الجزء.

وفيما عدا هذا يدل لفظ «الأمة» دائماً على جماعات كبيرة، أو على الأقل على جماعات تنطوي في غيرها أكبر منها.

وقد أرسل الله لكل أمة رسولاً ــ الأنعام: ٤٢ ــ يونس: ٤٧ ــ الرعد: ٣٠ ــ النحل: ٤٣، ٦٣ ــ المؤمنون: ٤٥ ــ العنكبوت: ١٨ ــ غافر: ٥ ــ أو نذيراً: فاطر: ٢٣، ٤٢ ــ يهديهم الى الصراط المستقيم. ولكن هؤلاء الرسل أُوذوا وكُذِّبُوا، كما وقع لمحمد ــ المؤمنون: ٤٤ ــ والعنكبوت: ١٨ ــ وغافر: ٥ ــ ولذلك سيكونون يوم القيامة شهداء على من كذّبهم وآذاهم ــ النساء: ٤٠ ــ النحل: ٨٤، ٨٩ ــ القصص: ٧٥ ــ البقرة: ١٤٢ ــ. وكل أمة ستحشر للحساب الأنعام: ١٠٨ ــ الأعراف: ٣٧ ــ يونس: ٤٥ ــ الحجر: ٥ ــ المؤمنون: ٤٣ ــ النمل: ٨٣ الجاثية: ٢٧.

وفي الأمم المختلفة قوم أجابوا دعوة الرسل فاهتدوا الى الصراط المستقيم، وآخرون لم يؤمنوا بما جاؤا به ــ النحل: ٣٦ ــ ويصدق هذا بنوع خاص على أهل الكتاب، ويسمى المهتدون من أهل الكتاب أمماً ــ آل عمران: ١١٣/ وما بعدها ــ المائدة: ٦٥ الأعراف: ١٥٩ ــ البقرة: ١٢٨، ١٣٤ ــ الأعراف: ١٦٧، ١٨١ ــ هود: ٤٨ ــ وهم طوائف صغيرة في جماعات كبرى.

وكثيراً ما يتعرض محمد لبحث مسألة اختلاف الناس أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة، ويرى أن السبب الحقيقي لهذا الاختلاف هو إرادة الله التي لا نحيط بها: ﴿وما كان الناس إلاّ أمةً واحدة فاختلفوا، ولولا كلمةٌ سبقت من ربكَ لَقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون﴾ ــ يونس: ١٩، وانظر سورة المائدة: ٤٨ ــ وهود: ١١٨ ــ والنحل: ٩٣ ــ والشورى ٨.

ويقال أحياناً إن سبب الاختلاف هو بغي الناس وشقاقهم ــ البقرة : ٢١٣ ــ الأنبياء : ٩٣ ــ المؤمنون : ٥٣ ــ .

وفي آية أخرى يرجع السبب إلى انقسام بني اسرائيل إلى اثنتي عشرة أمة ــ الأعراف : ٦٠ وانظر أيضاً : ١٦٨ ــ .

ويظهر أن أقوال محمد هذه ، وفيها من الخطابة أكثر مما فيها من المنطق إنما كانت إجابة على اعتراضات أثارها خصومه من أهل الكتاب ، وما كان النبي ليتعرض لهذه المسألة الصعبة من تلقاء نفسه .

أما فيما يتعلق بأمة محمد خاصة ، فنستطيع أن نتبدل بعض الاختلاف ، والتبدل في معنى كلمة « أمة » والمسألة ــ هنا ــ أسهل لأننا نعالج الى حد ما مسألة تاريخية .

كان محمد في أول رسالته يعتبر العرب عامة ومواطنيه من أهل مكة أمة قائمة بذاتها ، وكما أن الله أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السالفة ، فهو قد أرسل محمداً ليبلغ رسالة الله إلى الأمة العربية ، ويبين لها طريق النجاة ، ولم يكن قد بُعث فيها رسول من قبل ، وقد كُذِّبَ وأوذي أشدَّ الإيذاء ، شأن من سبقه من الرسل .

وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيين ، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة ، أسس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعاً جماعة سياسية واحدة بما فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية . وينص كتاب النبي بين المهاجرين والأنصار الذي وضعت فيه أسس هذا الحلف نصاً صريحاً على أن أهل المدينة بما فيهم اليهود يكوِّنون أمة ــ ابن هشام : ٣٤١ ــ ٣٤٢ وما بعدها ــ على أن الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة .

فلم يكد محمد يُحِسُّ أن مركزه قد توطد في المدينة ، ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع أن يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل

المدينة وخصوصاً « اليهود » الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يعتبر المسلمين أمة، ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ـــ آل عمران : ١٠٤ ـــ ١١٠ ـــ ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان مخالفاً لهم.

وكان من أثر قطعه للصلة بأهل الكتاب أن بدأ يميل شيئاً فشيئاً إلى أهل مكة والى الكعبة مركز عبادتهم ـــ البقرة : ١١٩ وما بعدها وخصوصاً : ١٢٢/ والحج : ٣٥، ٦٦ ـــ.

وإنما كان رجوعه الى فكرته الأولى في إنشاء أمة تشمل العرب جميعاً رجوعاً ظاهرياً، فالحقيقة أن النتيجة الأخيرة التي وصل إليها تختلف اختلافاً جوهرياً عن النقطة التي بدأ منها، فان فكرة إنشاء أمة عربية، وهي الفكرة التي أخذها محمد أول الأمر قضية مسلمة لم تتم إلا بعد جهد عظيم. على أنه إذا كانت الأمة التي أنشأها أول الأمر هي من العرب، فقد كان هذا أمراً ثانوياً.

أما الأمر الجوهري فهو الأساس الديني الذي قامت عليه، فبعد أن كانت أمة من العرب صارت أمة من المسلمين. ولا عجب أنه لم يكد محمد يموت حتى انتشرت إلى ما وراء جزيرة العرب، وأصبحت بمرور الزمن وحدة كبيرة تشمل أجناساً وأمماً مختلفة.

الأمـة .. واللغة العربية

أصل المعنى اللغوي :

يرى أبو البقاء في كلياته : ٣٠١/١ : أن «الأمة» ـ في الأصل ـ : المقصود ، كـ «العمدة» و «العُدّة» في كونهما معموداً ومعَدّاً .

وهذا يعني أن «الأمة» ـ عند أبي البقاء ـ بمعنى اسم المفعول . ولم أر أحداً من اللغويين ـ فيما علمت ـ تكلم على الوزن الصّرفي لكلمة «أمة» غير أبي البقاء . لكن يُفهم من المعاني التي ذكرها علماء اللغة أن «الأمة» قد تكون بمعنى اسم المفعول ـ كما هو رأي أبي البقاء ـ وقد تكون بمعنى اسم الفاعل . وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله .

الاشتقاق اللغوي :

وإذا كانت «الأمة» بمعنى المقصود فان اشتقاقها من «الأمّ» بمعنى : القصد . وهذا ما أكده صاحب لسان العرب حيث قال : الأمة ـ في اللغة ـ : من القصد . يقال : أممت إليه : إذا قصدته» ويشهد لقول صاحب اللسان قوله تعالى : ﴿ولا آمِّين البيتَ الحرامَ﴾أي . قاصدين . إلا أن الأمر الذي يلفت الانتباه أن «الأمة» ـ في اللغة ـ تتصرف في معان كثيرة كما جاء في كتاب «بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ٢٩/٢» للفيروز أبادي صاحب القاموس حيث قال :

الأمة ـ لغة ـ : الرجل الجامع للخير . والامام . وجماعة أرسل اليهم رسول . والجيل من كل حي . والجنس . ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان . والحين . والقامة . والأم . والوجه . والنشاط . والطاعة . والعالِم . ومن الوجه : معظمه . ومن الرجل : قومه . وأَمَّة الله تعالى : خلقه» .

وإن تصرف الكلمة في هذه المعاني المتعددة هو الذي دفع المستشرقين إلى الزعم بأن الكلمة دخيلة في العربية، وأنها ليست مشتقة من «الأمّ» بمعنى القصد، حيث لم يجدوا صلة اشتقاقية بين هذه المعاني على حد قولهم. ومن ثم حاولوا أن يلصقوها بالعبرية أو الآرامية.

الأصل الذي يجمع هذه المعاني:

يرى صاحب لسان العرب أن تلك المعاني المتعددة لكلمة «أمة» ترجع كلها الى معنى القصد حيث يقول في ذلك: «وأصل هذا الباب كله من القصد، يقال: أممت إليه: إذا قصدته. فمعنى «الأمة» ــ في الدين ــ: أن مقصدهم مقصد واحد. ومعنى «الأمة» في النعمة ــ: إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعنى «الأمة» ــ في الرجل المنفرد الذي لا نظير له ــ: أن قصده منفرد من قصد سائر الناس، قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَم أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يأْثَمَنْ ذُو أَمَّةٍ وهُو طَائِع

ولو أن صاحب اللسان تابع الكلام على بقية المعاني لأعفانا من كثير من العناء في هذا الموضوع، ولكنه مع الأسف لم يستوعب كل المعاني السابقة مما يجعل مهمتنا أكثر صعوبة وتعقيداً، وسنحاول فيما يلي اكتشاف الصلة الاشتقاقية الجامعة لمعاني كلمة «الأمّة» مستعينين في ذلك بما ترك لنا علماء اللغة والمؤلفون فيها من إشارات وأمارات.

تصنيف المعاني المختلفة ضمن مجموعات:

إن نظرة مدققة في المعاني المتعددة التي أشرنا إليها تفيد بإمكان تصنيف تلك المعاني في أربع مجموعات على النحو التالي:

المجموعة الأولى: تكون «الأمّة» فيها بمعنى الجماعة. وتشمل: الجماعة من الناس ــ أتباع الأنبياء ــ جماعة العلماء ــ منْ أُرسل إليهم الأنبياء من كافر أو مؤمن ــ الجيل والجنس من كل حي ــ إلى غير ذلك من أنواع الجماعات التي ذكرها علماء اللغة.

المجموعة الثانية : تكون « الأمّة » فيها بمعنى « الدين » أو « الملّة » أو « الطاعة » ، وهي ألفاظ متقاربة في المعنى ..

المجموعة الثالثة : تطلق « الأمّة » على رجل واحد إذا كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان أو كان لا نظير له . أو كان رجلًا جامعاً للخير . أو عالماً ، أو قدوة ، أو إماماً ، أو ربانياً . وهي كلها ألفاظ شبه مترادفة تعبر عن حقيقة واحدة .

المجموعة الرابعة : تكون « الأمّة » بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين » .

المجموعة الخامسة : تكون « الأمّة » أسماء لأعضاء في الإنسان كـ « الوجه » و « القامة » .

ويلاحظ أن المجموعات الأربعة الأُوَل ، هي التي ورد استعمالها في القرآن الكريم ، ومن ثم سينصب جهدنا واهتمامنا عليها دون المجموعة الخامسة ، والتي يكفي أن نشير فيها إلى أن « الوجه » و « القامة » ليسا بعيدين عن معنى « القصد » الذي اشتقت منه « الأمة » ، وذلك أن « الوجه » و « القامة » كثيراً ما يعبران عن الجهة التي يقصدها الإنسان وهكذا يقال : لا أمّة لبني فلان . أي : ليس لهم وجه يقصدون إليه ، لكنهم يخبطون خبط عشواء .

ونعود الآن إلى المجموعات الأربعة لنرى كيف يمكن رجعها إلى أصل واحد :

المجموعة الأولى : أن تكون « الأمة » فيها بمعنى الجماعة :

اتفق اللغويون جميعاً على أن معنى « الجماعة » هو المعنى الأصلي لـ « الأمّة » وأن المعاني الأُخر يمكن ردّها إلى ذلك المعنى الأصلي :

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : الأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دينٌ واحد ، أو زمانٌ واحد ، أو مكانٌ واحد . سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً » .

وقال أبو حاتم الرازي في كتابه « الزينة في الكلمات الإسلامية العربية » : الأمة : أصلها الجماعة من الناس والدواب والطير ــ أيّ جماعة ــ وأصله : الاجتماعُ على الشيء وعلى حالة واحدة » .

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : أصل « الأمة » : الصنف من الناس والجماعة .

أما كيف صارت « الأمة » : الجماعة ، وصلة ذلك بأصل الاشتقاق ، فنجده عند أبي البقاء والطبري والحكيم الترمذي :

يقول أبو البقاء : الأمّة ــ بالضم ــ في الأصل ــ : المقصود ، كالعُمدة والعُدّة في كونهما معموداً ومُعَدّاً . وتسمّى بها الجماعة من حيث تؤمّها الفرق » .

ويقول الحكيم الترمذي في كتابه « تحصيل نظائر القرآن » / ٨٢ / ــ : فالأمة : هي الجماعة التي يؤمها الناس ويقصدونها » ثم يقول : وإنما صارت « الأمّة » ــ في هذا المكان ــ : الجماعة ؛ لأن الذي يقصده الناس ويبصرونه : إنما يبصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها » .

ويلاحظ تقارب قول أبي البقاء مع قول الحكيم الترمذي ، وأن « الأمة » ــ عندهما ــ بمعنى اسم المفعول .

أما الطبري فيفهم من قوله أن « الأمة » بمعنى اسم الفاعل ، وذلك حينما يقول :

وأصل « الأمة » : جماعة من الناس تجتمع على دين واحد وملة واحدة ... ثم تستعمل في معانٍ كثيرة ترجع إلى معنى الأصل » . وكأن المعنى ــ على قول الطبري ــ : إن « الأمة » : هي الجماعة التي تقصد الدين وتلتقي عليه .

المجموعة الثانية : وتكون « الأمّة » فيها بمعنى الدين أو الملة .

وكما اتفق علماء اللغة على أن « الجماعة » هو الأصل في معاني « الأمّة » كذلك اتفقوا على أن « الأمّة » تكون بمعنى « الدين » .

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الأمّة : الدين . وحكى أبو زيد : لا أمّة له : لا دين له .

وقال أبو حاتم الرازي في كتاب « الزينة في الكلمات الإسلامية العربية » ـــ مخطوطة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة ـــ قال أبو عبيدة : أمَّة واحدة : ملّة واحدة . ويستدلون على ذلك ببيت النابغة المشهور :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً   وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع

يقصد بـ « ذو أمة » : ذو دينٍ .

أما كيف صارت « الأمُّة » : الدين أو الملّة فنجده عند أبي البقاء والطبري وابن قتيبة .

يقول أبو البقاء : وتطلق ـــ أي الأمة ـــ على الدين والملّة والطريقة التي تؤم » فهو على أصله السابق في أن « الأمّة » بمعنى اسم المفعول .

أما أبو جعفر الطبري فيقول : والأمّة : الدين . والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : أمّة . فتقام « الأمّة » مقام الدين » وكذلك تعليل ابن قتيبة قريب من تعليل الطبري .

ومما هو جدير بالذكر أن « الدين » المقصود في تعريف الطبري يراد به التدين العملي الذي يتمثل في السلوك الإنساني ، ويؤيد ذلك أن « الأمّة » ترِد بمعنى « الطاعة » و « الطريقة » فهما تفسير للدين المراد هنا .

المجموعة الثالثة : وتكون « الأمّة » فيها بمعنى الرجل المنفرد :

فقد جاء في لسان العرب : أن « الأمّة » : كل من كان على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان ، فهو أمّة وحده ... و « الأمّة » : الرجل الذي لا نظير له ... و « الأمّة » : الرجل الجامع للخير . وذكر كثير من اللغويين الحديث الوارد في ـــ زيد بن عمرو بن نفيل ـــ وأنه يبعث يوم القيامة أمّة وحده . ويقول احمد بن فارس في معجم مقاييس اللغة : والأمّة : الإمام . ونقل أبو حاتم الرازي أن « الأمّة » : القدوة والإمام .

ولا شك بأن هذه المعاني والألفاظ تعبر عن حقيقة واحدة .

أما كيف صارت « الأمّة » : الرجل المنفرد ، فهذا ما نجده عند صاحب اللسان ، والراغب الأصفهاني والطبري ، وابن قتيبة ، وأبي حاتم الرازي ، وأبي البقاء .

يقول صاحب اللسان : ومعنى « الأمّة » في الرجل المنفرد : أن قصده منفرد من قصد سائر الناس .

ويقول الراغب الأصفهاني في تفسير قوله تعالى ﴿ إن ابراهيم كان أمّة ﴾ : أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله ، نحو قولهم : فلان في نفسه قبيلة .

ويقول أبو جعفر الطبري : فالأمّة بمعنى « الإمام » و « معلّم الخير » إنما جاز تسمية الواحد فيها باسم الجماعة ؛ لاجتماع أخلاق الخير ـــ الذي يكون في الجماعة المفرَّقَة ـــ فيه . كما يقال : فلان أمّة وحده .

وأمّا ابن قتيبة فيقول : ثم تصير « الأمّة » : الإمام ، والرباني ، كقوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمّة ﴾ ، أي : إماماً يقتدي به الناس ؛ لأنه ومن اتبعه أمّة ، فسمي أمّة ؛ لأنه سبب الاجتماع . وقد يجوز أن يكون سُمّي أمّة ؛ لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثلُه في أمّة . ومن هذا يقال : فلان أمّة وحده . أي يقوم مَقام أمّة .

وأما أبو حاتم الرّازي فيقول : وقيل للرجل الواحد أمّة ؛ لاجتماع الناس إليه في حال الدين . وسمّي بذلك أيضاً لما اجتمع فيه من الخصال ما يكون متفرقه في كثير من الناس ، مثل : العلم ، والعقل ، والدين ، والجود ، والشجاعة وغير ذلك . فلما اجتمعت فيه ، قيل له : أمّة ؛ لأنه قام مقام جماعة من الناس ، وكان يجمع الناس إليه .

وقال أبو البقاء : وتطلق أي : الأمّة على الرجل الجامع لخصالٍ محمودة ... ومن هنا قيل : لو لم يبق من المجتهدين إلّا واحداً ، يكون قوله إجماعاً ؛ لأنه عند الانفراد يَصْدق عليه أنه أمّة .

وهكذا نرى أن صاحب اللسان يعود بالكلمة إلى « القصد » بينما يجعلها الآخرون ترجع إلى سبب الاجتماع ، أو اجتماع خلال الخير فيه ، أو لقيامه مقام أمة في عبادة الله .

المجموعة الرابعة : وتكون « الأمّة » فيها بمعنى « الحين » أو « الزمن » أو « السنين » :

قال صاحب اللسان : الأمة : الحين ، وقال ابن فارس : وبعد ذلك أصول ثلاثة ـــ يريد في معنى الأمة ـــ وهي : القامة ، والحين ، والقصد .

أما كيف صارت « الأمّة » : الحين ، أو السنين :

فيرى الحكيم الترمذي أنها صارت كذلك لاجتماع الأيام والشهور في سنين كثيرة ، ولا يظهر لهذا القول صلة بالمعاني الأُخَر لكلمة « الأمّة » .

وأما القول القريب إلى ما نحن بصدده فنجده عند الطبري وابن قتيبة ؛ والراغب الأصفهاني . وقد عبروا عنه بتعبيرات متقاربة :

يقول أبو جعفر الطبري : وإنما قيل « للسنين المعدودة » و « الحين » : أمّة ؛ لأن فيها تكون « الأمّة » .

ويقول ابن قتيبة : ثم تصير « الأمّة » : الحين . كأنَّ « الأمّة من الناس » ينقرضون في حين ، فتقام الأمّة مقام الحين .

ويقول الراغب الأصفهاني : وحقيقة ذلك : بعد انقضاء أهل عصر ، أو أهل دين .

نظرة جديدة تربط هذه المعاني :

ويمكن لنا أن ننظر إلى هذه المعاني الأربعة في كلمة « الأمّة » نظرة أخرى تمثل المراحل التي تمر فيها « الأمّة » عبر تاريخها ، فنقول :

تتمثل « الأمّة » أولًا برجل واحد ، حينما يكون على دين الحق مخالفاً لسائر الأديان ، وهو النبي غالباً ، أو من يسير على طريقته ، ومن ثم يكون الرَّجُلَ الذي لا نظيرَ له ؛ لأنه الرجل الجامع للخير ، والذي يكون إماماً وقدوة لغيره من الناس .

فإذا استجابت لهذا الرجل فئة من الناس ، وسارت على طريقته ومنهجه ، سُميت أمة لاجتماعها إليه في حال الدين ، أو لأنها تعبير عملي عن تعاليم الدين وأحكامه مطبقة في عالم المواقع .

فإذا تخلت الأمّة عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها ، ومن ثم تسمى أمّة باعتبار ما كان ، فكأن « الأمّة » هنا يراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها ملتزمة بدينها ، وكأن القرآن يَلفِتُنا في هذا إلى أن التاريخ لا يكون بوحدات زمنية فقط ، وإنما يمكن أن يحسب بوحدات دينية أيضاً يعبر عنها بـ « الأمّة » ويراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها تلك الأمّة منسجمة مع عقيدتها ودينها . وهذا يعني أن الإسلام لا يقيم كبير اعتبار للزمن وحده ، وإنما الاعتبار الأهم لما يجري فيه من نماذج عملية ملتزمة بطرق الهداية ، ومن ثم يكثر في القرآن إطلاق لفظ « القرون » على الأمم السابقة ، مع أنها في الأصل لفترة من الزمان .

وقد أطلتُ الكلام في المعنى اللغوي لـ « الأمّة » ليتبين فساد ما ذهب إليه المستشرقون في دائرة المعارف الإسلامية من زعمهم أن الكلمة دخيلة على العربية لعدم وجود صلة اشتقاقية بين معانيها المتعددة ، ومن ثم فقد جعلوها ترجع إلى أصل عبري أو آرامي . أما من حيث الصلة الاشتقاقية ، فأعتقد أن ما تقدم من الكلام كافٍ في دحض هذه الفرية التي أطلقها المستشرقون وقد يكونون معذورين ـــ لجهلهم بالعربية وفقهها ـــ في أن لا يدركوا الصلة الاشتقاقية بين معاني هذه الكلمة ، لكنهم غير معذورين في نفيهم هذه الصلة أصلاً ، فهذا تَقَوُّلٌ بما لا علم لهم به ، ومن ثم كان عليهم أن يكونوا أكثر تواضعاً ، لأنهم يتكلمون في شأن لغة يُعتبرون تلاميذَ في دراستها .

والأمر الآخر الذي تسرع فيه المستشرقون ـــ وكانت لهم فيه أناة ـــ زعمهم بأن كلمة « أمّة » العربية ، ترجع إلى أصل عبري أو آرامي ، دون أن يُقَدِّموا على ذلك دليلًا علمياً واحداً ، الأمر الذي يتنافى مع الموضوعية التي يدعونها ، ومع المنهجية العلمية التي كثيراً ما يلهجون بذكرها ، ذلك أن الزعم بأن كلمة ما مأخوذة من لغة من اللغات ، ليس بالأمر الهيّن اليسير ، فإن وجود كلمة واحدة في لغتين مختلفتين ليس شرطاً أن تكون إحدى اللغتين قد أخذته عن الأخرى . ولو سُلِّم ، فإن القطع بأن هذه اللغة هي الآخذة ، يحتاج إلى أدلة وبراهين دونها صعوبات وصعوبات .

ومع ذلك فإن المستشرقين ـــ والحق يقال ـــ قد شعروا بضعف موقفهم هذا ، فاحتاطوا لأنفسهم شيئاً من الاحتياط ، فبعد أن أطلقوا دعواهم العريضة في جرأة على العلم غريبة ، أدركوا أنهم ارتقوا مرتقىً صعباً ، وأن كلامهم هذا غير كاف في إقناع الآخرين ، فكان عليهم أن يفكروا بطريقة يحسنون فيها الانسحاب ، فوجدوا المخرج في مثل هذه العبارة :

« وقد تكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء ... ومهما يكن من شيء ، فإن محمداً أخذ هذه الكلمة واستعملها ، وصارت منذ ذلك الحين لفظاً إسلامياً أصيلًا » .

بمثل هذه الروح يكتب المستشرقون عن الإسلام والعربية ، وبمثل ذلك المنطق العجيب يفكرون ويقدرون . وبمثل هذه البساطة يصدرون الأحكام في قضايا ديننا وأمتنا . وبمثل هذا العبث يملؤون الكتب والمؤلفات التي تعتبر مراجع العصر وأصوله الثقافية ، ونحن عن كل ذلك غافلون ، مشغولون بأمور أخر لا تقدم ، بل تؤخر ، ولا تنفع بل تضر . فمتى نضع أرجلنا على الطريق القاصد ، ومتى نقدم الحقيقة ناصعة للناس كالشمس في رابعة النهار . متى ! ! !

معاني « الأمة » في القرآن الكريم

أشرنا فيما سبق إلى أن المعاني الأربعة التي ترجع إليها معاني « الأمّة » المتعددة في اللغة العربية ، هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وعلينا في هذا الفصل أن نتتبع تلك المعاني في القرآن الكريم ، ثم نعرض للمعنى الإسلامي لـ « الأمّة » في فصل مستقل .

أ ــ معنى الجماعة :

قلنا فيما سبق إنّ معنى « الجماعة » هو الأصل في دلالة الكلمة ، وأنه ينطوي تحته أنواع متعددة من الجماعات ، فما هي الجماعات التي وردت في القرآن الكريم والتي تنطوي تحت هذا المعنى .

١ ــ الجنس من كل حيّ :

ورد هذا المعنى لكلمة « الأمّة » في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام وهي قوله تعالى :

﴿ وما مِنْ دابّةٍ في الأرضِ ، ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلّا أُممٌ أمثالكم ، ما فرّطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يُحْشَرون ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالمثلية في هذه الآية :

فقال الراغب الأصفهاني : أي : كل نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع ، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت ، وبانيةٍ كالسّرفة ، ومُدَّخرةٍ كالنمل ، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام ، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع .

وقال أبو حاتم الرازي : أمماً : أصنافاً . كل صنف من الطير والدواب مثل بني آدم في طلب الرزق والغذاء ، وتوقي المهالك والتماس السبل .

وذهب غير هؤلاء إلى أنها أمم في « الدين » كما نجد ذلك عند صاحب لسان العرب حيث يقول : ومعنى قوله ﴿ أمم أمثالكم ﴾ : في معنى دون معنى ـ يريد والله أعلم ـ: ان الله خلقهم وتعبَّدهم بما شاء أن يتعبدهم من تسبيح وعبادة ، علمها منهم ولم يفقهْنا ذلك . وذهب إلى ذلك ابن قتيبة وغيره . بل إن ابن تيمية له رسالة في قنوتِ الأشياء كلها لله سبحانه وتعالى ، مما يجعل هذا المعنى راجحاً ، كما أن الطبري في تفسيره لهذه الآية ذهب هذا المذهب حيث يقول :

قال أبو جعفر : يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ـ ﷺ ـ:

قل لهؤلاء المعرضين عنك ، المكذبين بآيات الله : أيُّها القوم : لا تَحْسَبُنَّ الله غافلاً عما تعملون ، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون ، وكيف يغفل عن أعمالكم ، أو يترك مجازاتكم عليها ، وهو غير غافل عن عمل شيءٍ دبّ على الأرض صغير أو كبير . ولا عمل طائر يطير بجناحيه في الهواء بل جعل ذلك كله أجناساً مجنّسة وأصنافاً مصنّفة . تعرف كما تعرفون ، وتتصرف فيما سُخِّرت له كما تتصرفون ، ومحفوظٌ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ، ومُثْبت كل ذلك من أعمالها .

يقول : فالرَّب الذي لم يضيّعْ حفظ أعمال البهائم والدوابّ في الأرض ، والطير في الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها ، وأثبت ذلك منها في أمّ الكتاب ، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء ، أحرى أن لا يضيع أعمالكم ، ولا يفرّط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس ، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها ، إنْ خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر . إذ كان قد خصَّكم من نعمه ، وبسط عليكم من فضله ، مالم يَعُمَّ به غيركم في الدنيا ، وكنتم بشكره أحق ، وبمعرفة واجبه عليكم أولى ، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميّزون ، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير الذي به بين مصالحكم ومضارّكم تفرقون » .

ولا شك بأن هذا المذهب أليق وأقرب إلى الصواب من المعاني السابقة التي قالها بعض العلماء ، إلّا أن الأمر الذي يحتاج إلى شيء من التنبيه ، هو أن توحيد هذه المخلوقات وعبادتها لله أمور فطرية غريزية قريبة نوعاً ما من توحيد الإنسان الفطري الذي أشار إليه الرسول ــ ﷺ ــ بقوله : (كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة)[1] .

٢ ــ بمعنى الجماعة من الناس :

وردت كلمة « الأمّة » بمعنى الجماعة من الناس في الآية الخامسة والسبعين من سورة القصص : ﴿ ولَمَّا وردَ ماءَ مَدْيَنَ وجد عليه أمّةً من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودانِ قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يَصْدُرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخٌ كبير ﴾ .

فكون « الأمّة » ــ هنا ــ بمعنى « الجماعة » أمر لا خلاف فيه ، وكونها من الناس أمر ثابت بالنص . وقد استشهد أبو البقاء بهذه الآية عند تعريفه للأمة فقال عن الأمة : « وتسمّى بها الجماعة من حيث تؤمّها الفرق ، كقوله تعالى : ﴿ أمّةً من الناس يسقون ﴾ . وقد انفرد أبو البقاء في جعله « الأمّة » ــ هنا ــ بمعنى اسم المفعول ، لأنه على هذا المعنى يكون تقدير الكلام : فلما ورد ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس مقصودة للسقاية ، بينما المعنى الذي ذكره المفسّرون : وجد على الماء جماعة قاصدة السقاية ، وهو ما ينسجم مع وقوف المرأتين وانتظارهما حتى يصدر الرعاء ، ولو كانت الآية على المعنى الأول لسقوا للمرأتين ، ولم تنتظرا حتى يصدر الرعاء .

---

١ ــ انظر بحث « الفطرة » للمؤلف : مجلة حضارة الإسلام ــ العددان الخامس والسادس ــ السنة السادسة عشرة صفحة : ٥١ .

٣ ــ بمعنى الجماعة من القوم تتخذ موقفاً من الدين :

وذلك نجده في الآيات التالية :

أ ــ ﴿ وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ ــ الأعراف : ١٦٠ ــ

ب ــ ﴿ وقطّعناهم في الأرض أمماً منهمُ الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ ــ الأعراف : ١٦٨ ــ

جـ ــ ﴿ ومن قومِ موسى أمةٌ يهدون بالحقِّ وبه يعدلون ﴾ ــ الأعراف : ١٥٩ ــ

د ــ ﴿ وإذْ قالتْ أمَّةٌ منهم لِمَ تَعِظون قوماً الله مُهْلِكُهُمْ أو مُعذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ ــ الأعراف : ١٦٤ ــ

هـ ــ ﴿ ولو أنَّ أهلَ الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم مِن ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحتِ أرجلهم منهم أمَّةٌ مقتصدةٌ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعملون ﴾ ــ المائدة : ١٦٥ ــ ١٦٦ ــ

و ــ ﴿ لن يضروكمْ إلا أذىً ، وإنْ يقاتلوكمْ يولوكمُ الأدبارَ ثم لا يُنصرون . ضُربتْ عليهم الذّلةُ أين ما ثُقِفُوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ وباؤوا بغضبٍ من الله وضُربتْ عليهم المسكنةُ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلون الأنبياءَ بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواءً : مِنْ أهلِ الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناءَ الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يَفْعلوا من خيرٍ فلن يُكْفَرُوهُ والله عليمٌ بالمتقين ﴾ ــ آل عمران : ١١١ ــ ١١٥ ــ

وواضحٌ أن هذه الآيات كلها تتحدث عن بني إسرائيل قوم موسى ــ عليه السلام ــ وأن آية المائدة تشمل النصارى أيضاً حيث جاءت عامةً بلفظِ أهل الكتاب وذُكِرَ فيها إقامة التوراة والإنجيل . وكلها تفيد أن الأمة يمكن أن تُطلق على جماعة من القوم استجابت لنبيها فوصفت بالقائمة أو المقتصدة أو غير ذلك ، أو لم تستجب له فكانت أمة مجتمعة على تكذيبه وعمل السيئات ، وهذا يعني أن الجماعة من القوم تسمى أمة إذا كان لها موقف من الدين الذي جاء به النبي المبعوث إليهم سواء أكان هذا الموقف إيجابياً أم سلبياً .

٤ ــ بمعنى الجماعة التي أُرسل إليها رسول :

وذلك في مثل الآيات التالية :

﴿ ولكلِّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولهم قُضيَ بينهم بالقسطِ وهم لا يُظلمونَ ﴾ يونس : ٤٦

﴿ ولقد بعثنا في كلِّ أمةٍ رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ فمنهم مَنْ هدى الله ومنهم مَنْ حقّتْ عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ النحل : ٣٦

﴿ وإنْ من أمةٍ إلّا خلا فيها نذير ﴾ ــ فاطر : ٢٤ ــ

وهذا يعني أن كل أمة أُرسل لها رسولٌ ، وأن دعوة الرسل واحدة ، وأن من الناس من يستجيب لهؤلاء الرسل ، ومنهم من لا يستجيب . وكأن هؤلاء الناس الذين أُرسل لهم الرسل سُمُّوا أمماً لأنهم مقصودون من قبل أنبيائهم بالدعوة التي جاؤوا بها سواء استجابوا لها أم لم يستجيبوا فهم داخلون فيما يسمى بالمصطلح الإسلامي « أمّة الدعوة » .

٥ ــ بمعنى الجماعة من الناس تؤمن برسالة محمد ــ ﷺ ــ :

وذلك في قوله تعالى :

﴿ وممنْ خلقنا أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ الأعراف ــ ١٨١ ــ

﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ ــ البقرة ١٤٣ ــ

وقد روي في الآية الأولى أن الرسول ــ ﷺ ــ قال : هذه أمتي : قال : بالحق يأخذون ويعطون ويقضون .

وقد قال الطبري في الآية الثانية : والمعنى : كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله ، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته ، وفضلناكم بذلك عمّنْ سواكم من أهل الملل ، كذلك خصصناكم بأن جعلناكم أمة وسطاً ...

٦ ــ بمعنى جماعة العلماء :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمّةٍ أُخرجتْ للناس تأمرونَ بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن اهلُ الكتابِ لكان خيراً لهم منهمُ المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ــ آل عمران : ١١٠ ــ

وقوله تعالى : ﴿ ولتكنْ منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ــ آل عمران : ١٠٤ ــ

ولقد قال أبو جعفر الطبري في الآية الأولى :

اختلف أهل التأويل في قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ :

فقال بعضهم هم الذين هاجروا مع رسول الله ــ ﷺ ــ من مكة إلى المدينة من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ ، ومثله عن ابن عباس .

وعن عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : « أنتم » فكنا « كلنا » ، ولكن قال : كنتم ــ في خاصة من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ ومَنْ صنع مثلَ صنيعهم .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال في حجة حجها ورأى من الناس رِعةً سيئة وقرأ هذه الآية : كنتم خير أمة ... ثم قال : يا أيها الناس من سرّه أن يكون من تلك الأمة ، فليؤد شرطَ الله فيها .

وقال آخرون : معنى ذلك : كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس إذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم جلّ ثناؤه فيهم ، فكان تأويل ذلك عندهم : كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، أُخرجوا للناس في زمانكم .

وقال أبو جعفر في الآية الثانية :

ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة . يقول : جماعة ــ يدعون الناس إلى الخير يعني : إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده ، ويأمرون بالمعروف ...

وعن الضحاك : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . قال : هم خاصة الرواة ــ وقد ذكره ابن كثير في تفسيره ٢٠٩/٢ ولفظه : قال الضحاك : وهم خاصة الصحابة وخاصة الرواة . ثم بيّنهُ فقال : يعني : المجاهدين والعلماء .

ب ــ معنى « الملة » و « الدين » :

وذلك في قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة بعد المائتين من سورة البقرة :

﴿ كان الناسُ أمّةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليحكم بين الناسِ فيما اختلفوا فيه ، وما اختلفَ فيه إلّا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهمُ البيِّنَاتُ بغياً بينهم ، فهدى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

قال أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية بعد أن ذكر اختلاف المفسرين فيها :

وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يُقال :

إن الله ــ عز وجل ــ أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد ، وملّة واحدة ، .... على دين آدم ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وكان الدين الذي كانوا عليه دين الحق كما قال أبي بن كعب .... فاختلفوا في دينهم ، فبعث الله عند اختلافهم في دينهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، رحمة منه ــ جل ذكره ــ بخلقه واعتذاراً منه إليهم . وقد يجوز أن يكون ذلك الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام ــ كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قال قتادة ــ وجائزٌ أن يكون ذلك حين عرض آدمَ على خلقهِ ، وجائزٌ أن يكون ذلك في وقت غير ذلك ، ولا دلالة من كتاب الله ، ولا خبر يثبت به الحجة على أي هذه الأوقات كان ذلك .

فغير جائز أن نقول فيه إلّا ما قال الله ــ عز وجل ــ من أن الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم لما اختلفوا الأنبياءَ والرسل ، ولا يضرّنا الجهل بوقت ذلك ، كما لا ينفعنا العلم به ، إذا لم يكن العلم به لله طاعة . غير أنه أي ذلك كان ، فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة ، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق ، دون الكفر بالله والشرك به ، وذلك أن الله ــ جل وعز ــ قال في السورة التي يذكر فيها يونس : ﴿ وما كان الناسُ إلّا أمّةً واحدة فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ ــ يونس : ١٩ ــ فتوعّد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع ، ولا على كونهم أمة واحدة ، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ، ثم كان الاختلاف بعد ذلك ، لم يكن إلّا بانتقال بعضهم إلى الإيمان ــ ولو كان ذلك كذلك ــ لكان الوعد أولى

بحكمته ــ جل ثناؤه ــ في ذلك الحال من الوعيد ؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته ، ومحال أن يتوعد في حال التوبة والإنابة ، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك » .

ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة « الأمّة » بمعنى « الدين » قوله تعالى في الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة هود :

﴿ ولو شاء ربُّكَ لجعل الناس أمّةً واحدة ، ولا يزالون مختلفينَ إلّا من رحمَ ربُّكَ ﴾ :

يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلهم جماعة واحدة ، على ملةٍ واحدة ، ودينٍ واحد . قال قتادة : أي : جعلهم مسلمين كلهم .

ومنها قوله تعالى في الآية الثالثة والتسعين من سورة النحل :

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدة ، ولكن يُضل من يشاءُ ويهدي من يشاء ، ولَتُسأَلُنَّ عما كنتم تعملون ﴾ .

والمعنى ــ كما يقول الطبري ــ: ولو شاء ربكم أيها الناس لَلَطف بكم بتوفيق من عنده ، فصرتم جميعاً جماعة واحدة . وأهل ملة واحدة ، لا تختلفون ولا تفترقون ، ولكنه ــ تعالى ذكره ــ خالف بينكم ، فجعلكم أهل ملل شتّى بأن وفّق هؤلاء للإيمان به ، والعمل بطاعته ، فكانوا مؤمنين ، وخذل هؤلاء فحرمهم توفيقه فكانوا كافرين ، وليسألنكم الله جميعاً يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم ، ثم ليجازيكم جزاءكم : المطيع منكم بطاعته ، والعاصي له بمعصيته » .

ومن الآيات التي وردت « الأمّة » فيها بمعنى « الدين » و « الملة » قوله تعالى في الآية الثانية والتسعين من سورة الأنبياء :

﴿ إنَّ هذه أمتكمْ أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ :

يقول ــ تعالى ذكره ــ: ان هذه ملتكم ملة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني » .

ومن الآيات أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى في الآيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سورة الزخرف :

﴿ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمةٍ ، وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ ، ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلكَ في قريةٍ من نذير إلّا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ والمعنى : وجدنا آباءنا على أمة : على دين وملة ، وذلك هو عبادة الأوثان .

وكذلك قوله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف :

﴿ ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدة لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمن لبيوتهم سُقُفَاً من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون ﴾ .

والمعنى : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة : أي : جماعة واحدة على الكفر ، على طلب الدنيا ورفض الآخرة .

وبالإضافة إلى الآيات السابقة التي وردت فيها « الأمّة » بمعنى « الدين » نجد الآية الثامنة بعد الأربعين من سورة المائدة ، وكأنها بمعنى « الشِّرْعة » :

﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكمْ بينهم بما أنزل اللهُ ، ولا تَتَّبعْ أهواءَهم عما جاءك من الحقِّ ، لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ .

قال أبو جعفر في تفسير هذه الآية :

يقول تعالى ذكره : ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة ، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً غير شرائع الأمم الأُخر ومنهاجهم ، فكنتم تكونون أمّة واحدة ، لا تختلف شرائعكم ومناهجكم ولكنه ـــ تعالى ذكره ـــ يعلم ذلك فخالف بين شرائعكم ليختبركم فيعرف المطيع منكم من العاصي والعامل بما أمره في الكتاب الذي أنزله إلى النبي ـــ ﷺ ـــ من المخالف .

والابتلاء : هو الاختبار ... وقوله فيما آتاكم : فيما أنزل عليكم من الكتب . فإن قال قائل : وكيف قال : ليبلوكم فيما آتاكم . ومن المخاطب بذلك ؟ وقد ذكرت أن المعنيَّ بقوله :

﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ نبينا مع الأنبياء الذين مضوا قبله وأممهم ، والذين قبل نبينا ﷺ على حده . ؟

قيل : إن الخطاب ، وإن كان لنبينا — ﷺ — فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم ، ولكن العرب من شأنها إذا خاطبت إنساناً ، وضمّت إليه غائباً ، فأرادت الخبر عنه : أن تغلّب المخاطب ، فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب ، فلذلك قال — تعالى ذكره —:

﴿ لكلٍ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ .

جـ — بمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له :

والمعنى الثالث لـ « الأمة » : للرجل المنفرد الذي لا نظير له ، وقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية / ١٢٠ / من سورة النحل في قوله تعالى ﴿ إنَّ ابراهيمَ كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ، شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ وقال الحكيم الترمذي في الصفحة : ٨٢ — ٨٧ من كتابه « تحصيل نظائر القرآن » :

وإنما صارت الأمة إبراهيمٍ وحده — في مكان آخر — لأنه قد جمع الله الخيرات له حتى اتخذه خليلاً ، من اجتماع خصال الخيرات فيه ، وذلك : الوفاء ، والشكر ، والصبر ، والإيمان ، والإسلام ، والحنيفية ، والقنوت ، والهدى ، والاجتباء ، والأوّاهية ، والإنابة ، والبركة ، والاصطفاء ، والحلم ، واليد ، والبصر ، والحكم ، والنبوة ، والرسالة ، والخلة ، وسلامة القلب ، والصّديقية ، وثناء الرب عليه ، والحجة ، والصلاح ، والرشد ، والإحسان ، والإخلاص ، وكل ذلك مذكور في التنزيل فقد قال الله تعالى — في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة —:

﴿ وإذِ ابتلى ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ ﴾ فشهد له بالإتمام .

ثم قال أيضاً في الآية السابعة والثلاثين من سورة النجم ـــ:
﴿ وإبراهيمَ الذي وفّى ﴾ فشهد له بالوفاء .

ثم قال في الآيتين العشرين والإحدى وعشرين من سورة النحل ـــ:

﴿ إنّ إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ، شاكراً لأنعمهِ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

ثم قال في آية أخرى ـــ الخامسة والسبعين من سورة هود عليه السلام ـــ:

﴿ إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب ﴾ .

وقال في آية أخرى ـــ السابعة والستين من سورة آل عمران ـــ:
﴿ كان حنيفاً مسلماً ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة الصافات :ـــ
﴿ إنّه من عبادنا المؤمنين ﴾

ثم قال ـــ في الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة الصافات :
﴿ وباركنا عليهِ وعلى إسحاقَ ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية الواحدة والخمسين من سورة الأنبياء ـــ:
﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ ﴾ .

ثم قال :ـــ في الآية الخامسة بعد المائة من سورة الصافات ـــ:
﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية الثالثة بعد المائة من سورة الصافات ـــ:
﴿ فلما أسلما وتلّهُ للجبين ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية التاسعة والعاشرة والحادي عشرة بعد المائة من سورة الصافات ـــ:

﴿ سلامٌ على إبراهيمَ . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

ثم قال ـــ من الآية الخامسة والأربعين من سورة ص ـــ:

﴿ أُولي الأيدي والأبصار ﴾

قال : القوة والبصر في الدين ، والعون والتعلق بنا ، فإنما اليد للتعلق به ، والبصر لمشاهدة الربوبية .

ثم قال ـــ في الآية الرابعة والخمسين من سورة النساء ـــ:

﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتابَ والحكمةَ ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة ـــ:

﴿ إنّي جاعِلُكَ للناسِ إماماً ﴾ .

ثم قال ـــ في الآية الثلاثين بعد المائة من سورة البقرة ـــ:

﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرةِ لمن الصالحين ﴾ .

وقال أيضاً ـــ في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء ـــ:

﴿ واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾ .

ثم قال ـــ من الآية الرابعة والثمانين من سورة الصافات ـــ:

﴿ إذ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليم ﴾ .

وقال أيضاً ـــ من الآية الواحدة والأربعين من سورة مريم ـــ:

﴿ واذكُرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صدِّيقاً نبياً ﴾ . فأثنى عليه .

ثم قال ـــ في الآية الثامنة بعد المائة من سورة الصافات ـــ:

﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾ . يعني : الثناء عليه في الأمم .

ثم قال ـــ من الآية الثالثة والثمانين من سورة الأنعام ـــ:

﴿ وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ﴾ .

فإن قال : إن ابراهيم كان أمة ــ يعني جماعة وحده ــ فأية جماعة بأعظم ممن جمع الله له كل هذه الخصال .

ومن هنا كان تفسير المعلم عبد الحميد الفراهي للأمة ــ في هذه الآية ــ دقيقاً ويشمل كل هذه الصفات التيَ ذكرها الحكيم الترمذي حيث يقول الفراهي في كتابه « التكميل في أصول التأويل » في الصفحة التاسعة والخمسين :

إن اللفظ المشترك يأتي لمعان مختلفة ، ولا يُقضى فيه إلّا بالسياق وصحة المعنى :

مثلاً : كلمة « أمة » في قوله تعالى : ﴿ إن ابراهيم كان أمة ﴾ لا تؤول إلى معنى أُريدَ به في مواضع أُخَر فإنه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى . والمعنى المراد هنا لا نظير له من جهة اللفظ ، فإن الأمة في باقي القرآن : إما لمدة من الزمان ، أو لطائفة من الناس ، أو للطريق ، ولكن إذا تمسكنا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه :

أما الأصل الأول فإن كلمة « قانتاً » ــ بعدها ــ: تفسيرها ، فإن الأمة : هو الطائع بتمامه وهو أوفق بالقانت .

وأما الأصل الثاني : فلوجود نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة .

ولكن بقي علينا أن « الأمة » : هو الطائع » .

ويوضح الفراهي أن « الأمة » : الرجل المطيع ــ في تعليقاته على كتاب « العمدة » لابن رشيق والتي أرسلها إليَّ فضيلة الأستاذ محمد أجمل أيوب الندوي مشكوراً ــ:

قال الفراهي : قال الطبري في تفسيره : « كقولهم ــ للجماعة من الناس ــ: أمة ، وللحين من الزمان : أمة ، وللرجل المتعبد المطيع : أمة . وللدين والملة : أمة .

قال الفراهي : الأمة : الرجل المطيع .

قال النابغة :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً   وهلْ يأْثَمَنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ

قال الفراهي : الأمة : الطاعة .

قال عدي بن زيد :

ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور .

قال الفراهي : الأمة : أي : المطيعين .

قال الأعشى :

ولا الملكُ النعمانُ يومَ لقيته   بأمتهِ يُعطي القطوطَ ويأفق

قال الفراهي : أمته : أي : أتباعه .»

وبهذا يستدل الفراهي على أن « الأمة » تأتي بمعنى الرجل المطيع ، والذي ألجأه إلى الشعر الجاهلي يستنطقه هذا المعنى كون هذا المعنى غير مشهور في كثير من المصادر التي عرضت لمعاني « الأمة » .

د ــ والمعنى الرابع لـ « الأمة » الذي ورد في القرآن الكريم « الحين » :

وقد ورد في قوله تعالى في الآية الثامنة من سورة هود :

﴿ ولَئِنْ أَخَّرْنا عنهمُ العذابَ إلى أمّةٍ معدودةٍ لَيَقُولُنَّ : ما يحبِسُهُ ، ألَا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

والمعنى ــ كما يقول الطبري ــ:

ولئن أخرّنا عن هؤلاء المشركين من قومكَ يا محمد العذاب ، فلم نعجله لهم وأنسأنا في آجالهم إلى أمة معدودة ، ووقت محدود ، وسنين معلومة ......

وإنما معنى الكلام : ولئن أخرّنا عنهم العذاب إلى مجيء أمّة وانقراض أخرى قبلها .

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة يوسف :

﴿ وقال الذي نَجَا منهما وادّكَرَ بعد أمّةٍ ، أنا أُنَبِئُكُمْ بتأويلِهِ فأرسلون ﴾ .

والمعنى : وادّكر بعد أمّة : أي بعد حين .

المعنى الإسلامي لـ « الأمة »

عرفنا فيما سبق المعاني المتعددة لـ « الأمة » في اللغة وفي القرآن الكريم ، ويقي علينا أن نعرف المدلول الإسلامي لـ « الأمة » حينما تطلق أو حينما تأتي بصفة المدح :

يقول أبو البقاء في كلياته : ١/٣٠١ ـ ٣٠٢/ :

« ـ وفي حدود المتكلمين : الأمة : هم المصدقون بالرسول دون المبعوث إليهم » .

ويريد بقوله : « في حدود المتكلمين » : تعريفات علماء الاعتقاد والتوحيد والكلام .

ويقول الإمام أبو زكريا النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١١ :

لفظة « الأمة » تطلق على معانٍ منها :

ـ مَنْ صدَّق النبي ـ ﷺ ـ وآمن بما جاء به وتبعه فيه وهذا هو الذي جاء مدحه في الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلناكُمْ أُمَّةً وسطاً ﴾ و ﴿ كنتم خير أمة ﴾ وكقوله ـ ﷺ ـ: (شفاعتي لأمتي) وقوله : (تأتي أمتي غرّاً محجلين) وغير ذلك .

ولا شك أن ما جاء في تعريف أبي البقاء هو عين ما جاء في تعريف النووي ، وإنْ كان النووي أوفى شرحاً وتفصيلاً . وبذلك يخرج من المفهوم الإسلامي لـ « الأمة » أولئك الذين لم يصدقوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءت به من الهدى ، وإن كانوا يدخلون في معنى « الأمة » لغة كما سبق أن اشرنا إلى ذلك باعتبارهم مقصودون بالدعوة من قبل الرسول المبعوث إليهم . وهذا المعنى الآخر هو الذي صرح به النووي بعد أن ذكر المعنى الإسلامي الممدوح فقال :

ومنها ـــ أي من معاني الأمة ـــ: مَنْ بُعِثَ إليهم النبي ـــ ﷺ ـــ من مسلمٍ وكافر ومنه قوله ـــ ﷺ ـــ فيما أخرجه مسلم في كتاب الإيمان :

(والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ ولا نصراني ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحابِ النارِ) .

ويعرف الأستاذ سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ الأمة بالمعنى الإسلامي في كتابه « الظلال : ٩٣/٩ » فيقول :

الأمة : هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد ، وتدين لقيادة واحدة وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث : مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض ، وتحكمها دولة واحدة . فهذا مفهوم لا يعرفه الاسلام . انما هي من مصطلحات الجاهلية الحديثة .»

وهو لا يختلف عن التعريفين السابقين ، إلّا أنه أكثر تركيزاً على معنى القيادة الواحدة ، والمفهومة في التعريفين من إضافة « الأمة » إلى « النبي » . فالنبي هو نواة الأمة الذي يعمل على إيجادها وقيادتها بعد ذلك في طريق الهداية .

ولقد حرص رسول الله ـــ ﷺ ـــ على تأكيد المعنى الإسلامي للأمة وتميزه عن كل الأمم الأخر في إعلانه الدستوري العظيم الذي نظم به علاقة المسلمين مع غيرهم في المدينة المنورة وذلك بعد قيام الدولة الإسلامية التي كانت تضم قبائل متعددة من اليهود ، ولعل هذا الإعلان التاريخي يعتبر أول وثيقة دستورية تحدد العلاقات بين أمة المسلمين وغيرهم تحديداً دقيقاً ، وتبين الحقوق والواجبات لكافة الطوائف والقبائل وتحيل الأمر عند الخلاف إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفيما يلي مقتطفات من هذا الإعلان بالقدر الذي يتصل بدراستنا :

قال ابن كثير في « السيرة النبوية » ـــ ج : ٣٢٠/٢ ـــ ٣٢٣ ـــ:

وقال محمد بن اسحاق : كتب رسول الله ــ ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا كتابٌ من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحقَ بهم وجاهد معهم ، أنهم **أمةٌ واحدة من دون الناس** ، المهاجرون من قريش على رَبعتهْم ــ أي حالهم التي أتى الإسلام وهم عليها ــ يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم ــ أسيرهم ــ بالمعروف والقسط) ....

....

....

إلى أن يقول :

« وإنَّ يهود بني عوف **أمةٌ مع المؤمنين** ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلّا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ ــ يهلك ــ إلا نفسه وأهل بيته ....

....)

والكتاب كما لاحظنا يجعل المسلمين جميعاً أمة واحدة من دون الناس ، سواء منهم الذين كانوا في عهد النبي ــ ﷺ ــ من المهاجرين والأنصار أو الذين يلحقون بهم بعد ذلك ويجاهدون معهم ، كذلك يجعل اليهود أمة مستقلة ولكنهم يجتمعون مع أمة المؤمنين في دولة واحدة ، ولكل أمة دينها الخاص بها .

والكتاب بالإضافة إلى أنه يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم يبين لنا كيف يمكن التعايش بين هذه الأمم المختلفة في الدين في دولة تحكمها شريعةُ الإسلام ، فتحقق العدل بين الجميع .

وبذلك لا تصح أيضاً مزاعم المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية ، والتي تدعي أن كتاب النبي ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار ينص على أن أهل المدينة بما فيهم اليهود يكونون أمة وأن الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة وأن محمداً ﷺ لم يكد يحس أن مركزه قد توطد في المدينة ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة ، حتى استطاع أن يُخرجَ من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة ـ وخصوصاً اليهود ـ الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به ، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم ، وصار يعتبر المسلمين أمة ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية ، ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان محالفاً لهم .

فالنص الذي جاء في الصحيفة واضح في تمييزه بين أمة المسلمين وأمة اليهود ، وأن اليهود أمة **مع** المؤمنين في هذا التحالف ، وليسوا أمة من المؤمنين ، والظاهر أن المستشرقين لا يفرقون بين كلمة « **من المؤمنين** » وكلمة « **مع المؤمنين** » ، ثم إن الذي حدث بعد ذلك من مواقف ضد اليهود لم يكن إلّا تطبيقاً لما جاء في الصحيفة التي حددت العلاقات بين سكان المدينة كلهم ، وأن الذي ينقض ما جاء فيها لا يوتغ إلا نفسه ، وفعلاً فقد بدأ اليهود بنقض ما جاء فيها حين تآمروا مع المشركين على المسلمين ، وحين أخلّوا بالتزاماتهم تجاه ما جاء فيها ، ومن هنا كان العقاب يقع على مَنْ نقض ما تعهد به ، وكان إخراج اليهود من المدينة متتابعاً حسب المخالفات ، ولم يكن دفعةً واحدة .

وهكذا يحاول المستشرقون الدس والتحريف للنصوص والتاريخ بمثل هذا الكلام العام وذلك الخلط العجيب الذي يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي الرصين .

حقائق بارزة

ومن كل تلك التعريفات لـ « الأمة » بالمعنى الإسلامي تبرز الحقائق التالية :

١ ــ إن « الأمة » بالمعنى الإسلامي هي انتماء ديني عقدي ، وليست انتماء عنصرياً لجنس من الأجناس أو عرق من الأعراق . ومن ثَمّ فقد قامت الأمة الإسلامية خلال التاريخ من جميع العناصر التي استجابت لرسالة الإسلام ، بغض النظر عن انتسابها لجنس من أجناس البشر ، فقد كان فيها من الصحابة غير العرب سلمان وبلال وصهيب ، وكان فيها من الصحابة العرب كثيرون كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ولم يكن من هذه الأمّة أبو جهل وأبو لهب وأضرابهما من العرب الذين لم يدخلوا في دين الله .

ولا شك بأن الدعوة الإسلامية قد قسمت العرب إلى قسمين : مؤمنين برسالة الإسلام ، ومناهضين لها ، وكان الولاء في هذه الدعوة يقوم على أساس الدين وحده دون الاعتبارات الأُخر . ولم يكن هذا الأمر خاصاً برسالة الإسلام وحدها ، بل هو شأن كل الرسالات الإلهية ، إلّا أن الفارق بين رسالة الإسلام الأخيرة ، وتلك الرسالات السابقة لها ، أن مجال تلك الرسالات كان مقصوراً على أقوام بأعيانهم ، ومن ثمّ لم تعرف تلك الرسالات ما عرفته رسالة الإسلام من دخول أقوام وأجناس متعددة في دين الله ، فبقيت دعوتها حبيسة في إطار القوم الذين أرسل إليهم الرسول .

٢ ــ إن هذا الانتماء الديني العقدي الذي قامت عليه « الأمة » في الإسلام لا ينفي الانتماء العرقي الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ إنّا خلقناكمْ من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكمْ عند الله أتقاكم ﴾ .

كل ما هنالك أن هذه الآية القرآنية تشير إلى حقيقة موضوعية ، وهي أن الناس كلهم يعودون إلى ذكر وأنثى ، وأن الله جعلهم في شعوب وقبائل ليتم التعارف بينهم والالتقاء ، وأن التفاضل بينهم ، لا يقوم على أساس هذا التقسيم إلى شعوب وقبائل ؛ لأنه يعود في الأصل إلى ذكر وأنثى من خلق الله . وإنما التفاضل ينبغي أن يكون مرتبطاً بالعمل والخلق الصادرين عن الإنسان ، وهو ما تؤكده الآية نفسها : ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وإذن فالحقيقة القائمة المشاهدة ، هي انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتم بينها التعارف واللقاء . والحقيقة التي ينبغي أن تكون ، والتي من أجلها أرسل الله رسله ، وأنزل عليهم كتبه هي التقاء الناس من القبائل والشعوب المختلفة على انتماء ديني خلقي يتفاوتون فيه ويتفاضلون بمقدار قربهم من الدين والتزامهم بقيمه وأخلاقه .

وبهذا يتبين أن هذا النوع من الانتماء ، إنما ينفي في الواقع ما يمكن أن ينشأ عند بعض الأقوام والشعوب من نزعات التعصب والغرور ، والافتخار بالأحساب والأنساب ، والذي يؤدّي غالباً إلى إثارة الإحَنِ والعداوات ، الأمر الذي يتنافى مع حكمة جعل الناس شعوباً وقبائل بقصد التعارف واللّقاء .

كذلك فإن هذا الانتماء العقدي لا ينفي ما يمكن أن يكون هناك من خصائص وفضائل لبعض الشعوب ، إلّا ان التأكيد على هذه الخصائص وإبرازها واعتبارها مقياساً للتفاضل بين الشعوب التي تشكل أمّة واحدة تقوم على أساس العقيدة ، سيؤدّي إلى نوع من العصبية التي تهدد وحدة الأمة ، علماً بأنه ما من قومٍ من الأقوام ولا شعب من الشعوب إلا وله خصائصه وميزاته وفضائله . وخيرٌ للأمّة أن تقوم على أساسٍ يجمع كل هذه الخصائص والفضائل والميزات التي يكمل بعضها بعضاً من أن تقوم على أساس من التعصب القومي الأحمق الذي يهدر طاقتها ويشغلها عن حقيقة أهدافها ويقف حجر عثرة في طريق تقدمها وازدهارها .

٣ــ سبق أن أشرنا إلى أن المعنى الإسلامي لـ « الأمّة » هو نفس المعنى الذي جاء به الأنبياء جميعاً ، وقامت الأمم السابقة كلها عليه . غير أنه لما كانت كل رسالة من الرسالات السابقة للإسلام خاصةً بقوم معينين ــ وان القوم كلهم يُسَمّون ــ لغة ــ: أمّة ، باعتبارهم مقصودين بالدعوة من الرسول ــ فقد اختلط المعنى الديني للأمّة بالمعنى القومي من الناحية التاريخية ، ولم يتضح الأمر من الناحية التطبيقية الواقعية ، كما هو واضح من الناحية النظرية .

ولكن الأمر بمجيء الإسلام ــ الرسالة الخاتمة ــ أخذ وضعاً آخر ، ذلك أن الدعوة الإسلامية لم تكن مقصورة على قوم معينين ، وإنما كانت دعوة للناس كافّة ﴿ وما أرسلناك إلّا كافّةً للناس بشيراً ونذيراً ﴾ هذا من الناحية النظرية ، وأما من الناحية العملية التطبيقية فقد استجابت شعوب كثيرة غير عربية لدعوة الإسلام . ومن ثمَّ ظهر هذا المعنى الإسلامي للأمّة كأوضح ما يكون في رسالة الإسلام من الناحيتين النظرية والواقعية . وبالتالي لم يعرف التاريخ أمّةً جمعت شعوباً متعدّدة في أمّة واحدة كما حدث بالنسبة للإسلام .

وأما ما حدث بالنسبة للنصرانية فهو مختلف تماماً ، ذلك أن النصرانية في حقيقتها وصميمها كانت دعوة إلى بني إسرائيل خاصة كما جاء في القرآن الكريم في وصف عيسى عليه السلام : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكُمْ بآيةٍ من ربكم .... ﴾ ــ آل عمران : ٤٩ ــ وكما جاء في الآية السادسة من سورة الصف :

﴿ وإذْ قال عيسى بنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة وَمُبَشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ .

بل إن الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى تؤيّد هذا حيث ورد فيها حكاية عن المسيح عليه السلام : « إنما بعثتُ لخرافِ بني إسرائيل الضالة » .

وإذن : فالنصرانية لم تقدم تصوراً لـ « الأمة » التي تشمل شعوباً مختلفة ، لأنها خاصة ببني إسرائيل ومكملة لرسالة موسى عليه السلام ، ومن ثمَّ لم تعط مفهوماً عالمياً لـ « الأمّة » من الناحية النظرية .

أما من الناحية الواقعية العملية فقد خرجت النصرانية نتيجة ظروف معيّنة من إطارها القومي ــ ودون قصد منها ــ فدخلت فيها شعوب متعددة ، ولكن النصرانية لم تكن قادرة بمقوماتها النظرية على استيعاب هذه الشعوب في أمّة واحدة ؛ لأنها لم تكن مهيأة لذلك ، ولا هو من أهدافها .

يضاف إلى ذلك أن النصرانية في جملتها كانت دعوة روحية مكملة لما جاء به موسى عليه السلام ، ومن ثَمَّ فلم تظهر النصرانية في التاريخ ديناً ودولة ونظام حياة ، كما ظهر الإسلام ، وإنما ظهرت كدين يُعنى بالقضايا الروحية والأخلاقية ، وقد تركت المجال مفتوحاً للقانون الروماني يحكم حياة النصارى المدنية ، وبالتالي فلم يكن الدين في النصرانية التاريخية إلّا عنصراً واحداً من جملة عناصر تُسَيِّر حياة النصارى وتوجهها . ومن هنا لم يكن الدين عندهم قادراً على تكوين أمة بمفرده ، مما حدا بهم أن يبحثوا عن عناصر أُخر ، وانتهى بهم الأمر إلى ما يسمونه بالعناصر أو المقومات اللازمة لتكوين الأمّة ، واختلفوا في شأنها اختلافات كثيرة ، كما اختلفوا في تصنيفها وبيان درجة أهمية كل واحد منها .

وبناءً على ذلك لم يعرف التاريخ أُمَّةً نصرانية واحدة ــ ضمَّت شعوباً مختلفة ــ وإنما عرف أمماً متعدّدةً يدين أهلها بالنصرانية في جزء من سلوكهم .

أما في الإسلام فقد وجدت الأمة المسلمة متميزة من المعنى القومي منذ نشأتها ، حيث دخل فيها العربي وغير العربي ، وكان الخطاب في كتابها الخالد موجهاً للناس جميعاً : ﴿ يا أيها الناس ﴾ يدعوهم إلى الإيمان . فإذا أجابوا دعوةَ الله خُوطِبُوا ب ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . ثم قامت الدولة الإسلامية بعد ذلك في المدينة على هذا الأساس العقدي الإيماني ، وما هي إلا سنواتٌ قليلة حتى توالت الفتوحات الإسلامية ، ودخلت في الإسلام أقوام وشعوب لم تلبث أن انصهرت في بوتقة الإسلام وغَدَتْ أمةً واحدة تُحْكَمُ بشريعة واحدة ، وتتجه في نظام حياتها وسلوكها اتجاهاً واحداً ، ولم تكن بحاجة إلى أن تبحث عن عناصر ومقومات لـ « الأمة » ؛ لأن الإسلام أغناها بعقيدته وقيمه عن أن تتطلع إلى مثل تلك العناصر والمقومات .

ولقد شارك في حكم الدولة الإسلامية عناصر تمثل تلك الشعوب المتعدّدة التي تكونت منها الأمة المسلمة ، وتنقلت عاصمة الخلافة من قطر إلى آخر مسايرة بذلك الفتوحات الجديدة ، وزيادة رقعة دار الإسلام . وبقي الأمر كذلك ثلاثة عشر قرناً من الزمان إلى أن سقطت الخلافة تحت تأثير الضربات المتوالية والكيد الخبيث الذي مارسته الصليبية العالمية واليهودية الحاقدة ، وخضعت الأمة الإسلامية للاستعمار الغربي ـــ الاسم الجديد للصليبية التاريخية ـــ الذي بدأ ينفذ مخططاً رهيباً لتمزيق روابط الأمة بما أقام لها من دويلات متعددة ، وأثار في شعوبها من نزعات إقليمية وتطلعات قومية ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فطرح لها أفكاراً وصيغاً جديدة لتقيم حياتها ونظامها على أساسها لكي لا تفكر بالعودة إلى صيغتها الإسلامية الجامعة . وقد نجح الاستعمار في مخططه هذا إلى حدٍ بعيد وما زال يصر ويلح على تنفيذه كاملاً ، وإننا لنرى آثار الغزو الفكري الأوروبي في ذلك الجيل من الحكام الذي تربى في مدرسة الاستعمار الفكرية وعلى عينه ، والذي سار في طريق تغريب بلاده بعيداً عن قيم الإسلام وثقافته ، فبلغ الاستعمار بهم مالم يستطع أن يبلغه باحتلاله العسكري .

ومن هنا بدأنا نسمع في بلاد الإسلام حديثاً عن العناصر التي تكون « الأمّة » ، وهل يصلح الدين عنصراً من عناصر تكوين الأمة أو لا يصلح ؟ وهل نقول أمة إسلامية أو أمة عربية ؟ وهل الآيات التي وردت في القرآن الكريم عن « الأمة » يقصد بها الأُمّةُ العربية أو الأمّةُ الإسلامية[1] ؟ إلى آخر ما نسمع ونرى ونقرأ من أمور لم تكن مطروحة على هذه الأمة في يوم من الأيام ، ولو طُرحتْ عليها مثلُ هذه القضايا في تاريخها الطويل ، واخْتلفَتْ إجابتها عليها كما تختلف الآن ، لما أمكنها أن تصل إلى ما وصلتْ إليه من أمجاد ، ولما استطاعت أن تقف على أقدامها في وجه الغزاة .

---

١ ــ آخر ما قرأناه في هذا الموضوع ما كتبه صفوان قدسي في مجلة « المعرفة » السورية : عدد /١٧٥/ أيلول سنة ١٩٧٦ . مناقشاً بعض وقائع الملتقى العاشر للفكر الإسلامي الذي انعقد في « عنابة » ــ بالجزائر ــ في شهر تموز من سنة ١٩٧٦ تحت عنوان « القومية البغيضة ومناقشات أخرى » ، قال صفوان قدسي :

« .... لكن القيامة قامت ولم تقعد عندما عقّبتُ على نقطتين اثنتين وردتا في محاضرة الدكتور الفاروقي ، أما النقطة الأولى فهي اجتهادي في تفسير الآية الكريمة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ بأن المقصود فيها هو الأمة العربية بالذات ، وليس أية أمة أخرى على الإطلاق . فالذين استساغوا حديث الدكتور الفاروقي عن « القومية البغيضة » لم يرضهم هذا التفسير ، واعتبروه خروجاً على كل ما عرفوه من تفاسير لهذه الآية الكريمة ، فاختلفوا إلى المنصة يردون ويعترضون . وعلى الرغم من أن الأستاذ الدكتور محمد المبارك قد سبقني إلى هذا الاجتهاد في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » كما ذكر لي بعد انتهاء المناقشات ، فإن الجوّ الانفعالي الذي ساد هذه المناقشات حال بينه وبين أن يقوم لمناصرتي في الأخذ بهذا التفسير » ــ انتهى كلام صفوان قدسي ــ .

ونحن نطمئن الأستاذ صفوان قدسي بأننا لم نسمع محاضرة الدكتور الفاروقي وبالتالي لم نتأثر بها ، ومع ذلك فإنّ لنا معه وقفة نسائله فيها عن اجتهاده وتفسيره :

←

لقد أطلق الأستاذ صفوان دعوى عريضة جداً ، وهي أن المقصود ب « الأمة » في قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ الأمة العربية بالذات وليس أية أمة أخرى على الإطلاق » وأمام هذه الدعوى العريضة لم يقدم لنا دليلاً واحداً على اجتهاده في هذا التفسير . ونحن لا ننكر على الأستاذ صفوان حق الاجتهاد في التفسير ، ولكننا نطالبه بالدليل الذي اعتمد عليه في هذا الاجتهاد . وإذْ لم يقدم لنا هذا الدليل فإننا نعتبر اجتهاده هذا من لغو القول الذي تعافه النفوس والعقول . وبالتالي فإنه مجرد خاطرة خطرت في نفسه فسارع بإعلانها دون أن يفطن لمنافاتها لكل عقل ونقل وكان يجدر به أن يَخْبأها لنفسه وأن لا ينشرها على الناس في مجلة تحمل اسم « المعرفة » .

إن ما جرى بينه وبين الأستاذ المبارك لا نخوض فيه ، لأننا لم نسمع ولم نعرف كل ما دار بينهما ، ولكن الذي نعرفه أن ما كتبه الأستاذ المبارك في كتابه « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » والذي درسناه عليه في جامعة دمشق ليس فيه مثل هذا الاجتهاد في التفسير ، وكان يحسن بالأستاذ صفوان أن يعود إلى الكتاب بعد عودته من الجزائر وأن ينقل رأي الأستاذ المبارك من كتابه ، وأن يستشهد به في مقاله ، هذا ما تتطلبه أصول البحث العلمي ، وإذْ لم يفعل ذلك الأستاذ صفوان ، فإنه يبقى في الميدان وحيداً في اجتهاده وتفسيره . وهذا يتطلّب منه جهداً أكبر في البحث عن دليل لاجتهاده وتفسيره .

إنّ من الأصول المقررة في فهم أي كلام مراعاة سياقه حيث يختلف المعنى باختلاف السياق ، ولو أننا رجعنا إلى الآية موضوع البحث وقرأناها كاملة ربما ساعدتنا على بيان المراد منها ، يقول الله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة البقرة : ﴿ وكذلك جعلناكُمْ أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً وما جعلنا القبلةَ التي كنتَ عليها إلّا لنعلمَ مَنْ يتبعُ الرسولَ ممنْ ينقلب على عقبيه ، وإنْ كانت لكبيرةً إلّا على الذين هدى اللهُ ، وما كان اللهُ لِيُضيعَ إيمانكم إنّ اللهَ بالناسِ لرؤوفٌ رحيم ﴾ .

إن نظرة واحدة لهذه الآية تبين لنا أنها خطابٌ للمؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ــ ﷺ ــ إليها . ذلك ــ

← أن سورة البقرة أول سورة نزلت في المدينة بعد الهجرة ، وسياق الآية في شأن تحويل القبلة كما هو واضح ، وأظن ان الأستاذ صفوان يوافقني في أن العرب الذين لم يُصَلّوا إلى بيت المقدس ككفار قريش لا يدخلون فيها بدليل الخطاب في آخر الآية ﴿ وما كان اللهُ ليضيع إيمانكم ﴾ إذ من المعروف ان الإيمان ــ هنا ــ يُقصدُ به الصلاة إلى بيت المقدس ، وذلك ردٌ على اليهود الذين اعتبروا صلاة المسلمين إلى بيت المقدس ضائعة بعد أن حُوِّلَتْ القبلة إلى الكعبة .

لو احتكمنا إلى قواعد اللغة العربية في تفسير هذه الآية فماذا نجد :

إن « جعل » تكون بمعنى « خلق » وتكون بمعنى « صيَّر » وتكون بمعنى « سمّى » ، فتكون بمعنى « خلق » إذا نصبت مفعولاً واحداً كقوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ، وجعلَ الظلماتِ والنور ﴾ الأنعام : ١ وتكون بمعنى « صيّر » أو « سمّى » إذا نصبت مفعولين . فمما جاءت به بمعنى « صيّر » قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ إنّ فرعونَ علا في الأرضِ وجعلَ أهلها شيعاً ﴾ ــ القصص : ٤ ــ ومما جاءت به بمعنى « سمّى » قوله تعالى : ﴿ ما جعلَ اللهُ من بَحيرةٍ ولا سائبة ولا وصيلةٍ ولا حام ﴾ ــ المائدة : ١٠٣ ــ فلا يصح هنا إلا معنى « سمّى » لأنها ــ « البحيرة » و « السائبة » و « الوصيلة » و « الحام » ــ من تسمية المشركين للأنعام التي لم يُسَمِّها اللهُ بذلك . ولا يصح هنا معنى « الخلق » ولا معنى « التصيير » . لأنها لو كانت بمعنى الخلق لكانت : « ما خلق الله من بحيرة ... » ونفي ذلك كفر لأنها نوع من الأنعام التي خلقها الله ، وكذلك معنى « التصيير » غير واردٍ أيضاً لأنه لا يصح .

ولو رجعنا إلى الآية موضوع البحث نجد أن « جعل » فيها نَصبتْ مفعولين هما الكاف في قوله : ﴿ جعلناكم ﴾ و : ﴿ أمّةً ﴾ . وعلى هذا لا يصح فيها معنى « خلق » ، ولو كانت بمعنى « خلق » لجاز أن يُرادَ بـ « الأمة الوسط » : العرب . فلم يبق إلّا معنى « صيّر » أو « سمّى » فإذا قلنا إنها بمعنى « صيَّر » فمعنى ذلك أنكم لم تكونوا أمةً وسطاً ثم صرتم كذلك ، وهذا يعني أنه لا بد من سببٍ صرتم بموجبه كذلك ، وليس ذلك إلّا بالإسلام بدليل : ﴿ لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ ، ولا يدخل في هذه الأمة الذين لم ←

٤ ــ أما وقد طُرِحتْ على أجيالنا عناصر تكوين الأمة في الغرب ، فلا بد لنا من بيان وجهة نظر الإسلام في هذه العناصر . لا لأننا نعتبرها مقومات للأمة ــ كما يقولون ــ وإنما لبيان المعاني التي أضفاها الاسلام على هذه العناصر .

أ ــ العرق :

قدمنا فيما مضى شيئاً مما يتصل بالعرق حينما تكلمنا عن المعنى الإسلامي للأمة ، وأنه يعتبر انتماءً عقدياً لا عرقياً ولا عنصرياً ، وأن الإسلام يعترف بانقسام الناس إلى شعوب وقبائل وأن حكمة ذلك هي التعارف بين الناس ، غير أن الإسلام مع اعترافه بهذا الواقع ، فهو يسعى إلى إيجاد انتماء عقدي فكري يكون مجالاً للالتقاء والتعاون بين

ــ يصيروا مسلمين لأنهم بقوا على ما كانوا عليه . وإذا قلنا إنها بمعنى سمّى كان المراد بـ « الأمة الوسط » الأمة المسلمة لأن هذه التسمية لم تُعرف للعرب قبل الإسلام ، ويدل على هذا قوله تعالى في الآية « ٧٨ » من سورة الحج وما قبلها حيث جاء فيهما : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون «٧٧» وجاهدوا في الله حقَّ جهاده هو اجتباكُمْ وما جعلَ عليكم في الدين من حرجٍ ملّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ **هو سمَّاكُمُ المسلمينَ من قَبْلُ وفي هذا** ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداءَ على الناسِ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكُم فنعم المولى ونعم النصير« ٧٨ » ﴾ .

فإذا فسّرنا ﴿ جعلناكُم ﴾ في آية البقرة بمعنى « سمّى » كان معنى آية الحج مساوياً لها :

﴿ وكذلك جعلناكُم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً = هو سمّاكُم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداءَ على الناس ﴾ وبمثل هذه الأدلةِ من اللغة والقرآن يكون الاجتهاد ويكون التفسير ، ولا يكون بمجرد الدعوى من غير ما علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير .

الشعوب ، ويهذب من حدَّةِ التعصب القبلي والقومي الذي ينشأ عند الناس بدافع التفاخر بالأحساب والأنساب ، وأن الإسلام لا يعمل على إلغاء هذا الواقع ، وإنما يبعده عن أن يكون مقياساً للتفاضل بين الناس ومجالاً للتفاخر والتناحُرِ ، ويقيم بدلاً منه قِيمَ الدين مقياساً للتفاضل على أساس العمل الصالح الذي يصدر عن الناس . إلّا أن هناك نقطة كثيراً ما كانتْ موضعَ جدلٍ ومناقشة في أوساط المثقفين المعاصرين ، وهي فيما يتصل بعلاقة العرب كـ « قوم » بـ الإسلام كـ « دين » ، فلا بد لنا إذن من الوقوف عند هذه النقطة وإلقاء الأضواء عليها باعتبارها من الأمور التي يكثر حولها الكلام .

إن الإسلام وإن كانت صلته بجميع الشعوب والأقوام تقوم على مبدأ المساواة ، وتحكمها نظرةٌ واحدة ــ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ــ إلا أنه بالنسبة للعرب هناك علاقة خاصة بين الإسلام والعرب ، ليست لشعب من الشعوب ، ولا لقوم من الأقوام .

لقد اختار الله سبحانه ــ نبيَّه من العرب ، واختار لغة العرب لتكون لغة كتابه الخالد ، واختار البيت الحرام ليكون كعبة المسلمين ومهوى أفئدتهم من مشارق الأرض ومغاربها ــ وهو في مكة المكرمة قلب بلاد العرب ــ واختار الجزيرة العربية لتكون قاعدة لدين الله ، فلا يجتمع في جزيرة العرب دينان .

وأذّن رسول الله ــ ﷺ ــ بدعوته في مكة ، واستجاب له عدد قليل من العرب ، ودخلوا في دين الله ، كما دخل معهم أفراد من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الجزيرة ، ولقي الرسول ــ ﷺ مقاومة عنيفة من قريش اضطرته بعد ذلك إلى الهجرة للمدينة المنورة حيث وجد الأنصار الذين رحبوا به وبدعوته ودخلوا في دين الله أفواجاً . ولم يلبث رسول الله ــ ﷺ ــ أن تغلب على قريش وخضعتْ له جزيرة العرب ، فخلصت للإسلام أرضاً

وقوماً . ثم انطلق هؤلاء العرب المسلمون يحملون راية الإسلام إلى كل صقع ، وينشرون ألوية العدل في كل مكان . بعد أن شرفوا بحمل رسالة التوحيد .

أما لماذا اختار الله رسوله من العرب ؟ ولماذا اختار العربية لغة لكتابه ؟ ولماذا اختار بلاد العرب نقطة وقاعدة لانطلاق دعوته ؟ ولماذا كان الرعيل الأول الذين حملوا راية الاسلام معظمهم من العرب ؟ فمن الأمور التي يكثر الكلام حولها . وخير ما يجاب به في مثل هذا الموضوع أن نقول :

﴿ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته ﴾ . ولا شك بأن العرب في ذلك الوقت كانت لهم خصائص وفضائل كما كانت لهم قبائح ورذائل ـــ كما هو الحال في كل شعب من الشعوب ـــ ومع ذلك فلعلّ وضع العرب في ذلك الوقت كان أنسب من وضع غيرهم وأليق بحمل رسالة الإسلام ، فاختيروا كطليعة لحمل هذه الرسالة إلى غيرهم من الشعوب والأقوام . ولقد كانوا على مستوى المسؤولية حينما خرجوا مجاهدين في سبيل الله مضحين بأموالهم وأنفسهم ، فنجحوا في مهمتهم خير نجاح وقدموا للعالم هديّتهم فكانت خير هداية .

لقد شعر العرب المسلمون بعظم الأمانة التي انيطت بهم ، فعرفوا قدر أنفسهم ، وفهموا حقيقة دعوتهم ، وأدّوا واجبهم في نشر الإسلام وتبليغه . دون أن يُشْعِروا غيرهم من الشعوب الأخرى ـــ التي استجابت لدعوة الإسلام ـــ بفوقية أو تفضل وامتنان ، لأنهم لم ينطلقوا بهذا الدين إلّا امتثالاً لأمر الله ـــ عز وجل ـــ ، ومن ثم لم يكن جهادهم في سبيل المغانم المادية أو المطامع الاقتصادية ، وإنما كان جهاداً في سبيل الله ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا .

ولقد قدّر المسلمون من غير العرب لإخوانهم العرب المسلمين جهدهم وجهادهم ، فنظروا إليهم نظر المحبة والإكبار نظراً لما حملوه إليهم من خير ، وما تكبدوا في سبيل ذلك من تضحيات ومشاق ، وساروا معهم جنباً إلى جنب يكتبون بدمائهم سطور ملحمة جهادية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً .

أما ما تذكره كتب التاريخ من وجود فئات شعوبية في بعض مراحل التاريخ الإسلامي حاولت تجريد العرب من مزاياهم ، وإلصاق النقائص بهم ، فهذا أمر لا يستبعد وقوعه من فئات منحرفة ذات أغراض خبيثة لتفرق بين المسلمين ، وتثير الأحقاد والضغائن بين شعوبهم . ولقد حاول اليهود مثل ذلك إبان انطلاق الدعوة الإسلامية في المدينة حينما حاولوا تذكير الأوس والخزرج بعداواتهم القديمة قبل أن ينعم الله بالاسلام عليهم . فهذا أمر ممكن الحدوث في كل زمان ومكان من الفئات الحاقدة التي تتضرر مصالحها ، وهذا لا يؤثر في الاتجاه العام من الاحترام والتقدير الذي كان هو السمة البارزة في نظرة المسلمين من غير العرب إلى إخوانهم من العرب المسلمين .

وبناءً على ما تقدم . فإن الميزة الأولى للعرب ، هي كونهم أقرب من غيرهم لفهم كتاب الله الذي نزل بلغتهم ، ومن ثم فقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن « العربية » : اللسان . وهذا ما دعا المسلمين من غير العرب أن يحبوا لغة العرب ويعكفوا على دراستها ، بل إنهم قد برعوا في ذلك وأبدعوا ، وألفوا في علومها وأوسعوا ، وشاركوا مشاركة فعّالة في علوم الإسلام المتعددة ، بل إن كثيراً منهم تخلّى عن لغته الأصلية أو نسيها بعد أن عرف العربية ودرجت على لسانه . وكلما اقترب المسلمون من غير العرب من لغة العرب كلما تضاءل هذا الفارق بينهم وبين إخوانهم العرب المسلمين في فهم كتاب الله وشاركوهم في هذه الميزة الخاصة بهم .

ولا يطعن في ما قدمنا من حب المسلمين غير العرب للغة العربية ما قام به الاتحاديون في العهد العثماني من محاربة للعربية وإقصاء لها عن ان تكون اللغة الرسمية والعمل على أن تكون اللغة التركية بديلاً عنها ، أقول لا يطعن ذلك في

حب العربية ، لأن عمل الاتحاديين لم يكن موجهاً ضد العربية وحدها وإنما كان مؤامرة يهودية ماكرة استهدفت الإسلام نفسه والخلافة ذاتها ، وهذا ما أكدته الحقائق التاريخية بعد انحلال الخلافة وتولي أتاتورك زمام الأمور في تركية حيث سار بها بعيداً عن ثقافتها ودينها وتراثها ، بل إنه حاول قطعها نهائياً عن جذور تاريخها وتراثها بتغييره للحروف العربية إلى حروف لاتينية . ورغم كل هذه المحاولات الماكرة فلم تستطع تلك القوى أن تنال من إيمان الشعب التركي وعقيدته ، وها هي تركية الآن بعد ان انقضى جيل على عهد أتاتورك تسير في طريق العودة إلى الإسلام والعربية مرة أخرى . فتنشيء المدارس العربية لتعليم القرآن واللغة العربية وبقية العلوم الإسلامية الأخرى ، وتقترب اكثر فأكثر من العرب والإسلام بعد أن ظن الناس في فترة من الفترات أن قلعة الإسلام في تركية قد تحطمت ، وأن جذوة الإيمان في قلوب الأتراك قد خبا نورها وانطفأ أحرارها ﴿ واللهُ غالبٌ على أمره ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾ .

ولقد استغل أحفاد الصليبيين انحراف الاتحاديين في محاربة العربية وعملوا على توسيع الفجوة بين المسلمين الأتراك وإخوانهم العرب المسلمين ، كما حاولوا طرح أفكار جديدة بديلة للإسلام بقصد إضعاف رابطة العقيدة الإسلامية ، وإبعاد المسلمين عن مصدر قوتهم ، فأنشؤوا الأحزاب الشيوعية والقومية المختلفة فقام بعضها على أساس إقليمي ورفع شعارات إقليمية « سورية للسوريين » و « مصر للمصريين » وحاولوا أن يجعلوا لكل إقليم تاريخه الخاص ، فأثاروا الاعتزاز بالجاهليات القديمة التي عفى عليها الإسلام كالفينيقية والفرعونية وغيرها . كما قام بعضها على أساس قومي عربي بحيث حصر مجال نشاطه في بلاد العرب ، وحاول إنشاء عقيدة قومية بديلة للإسلام حين اعتبر القومية رسالة خالدة ، وحاول تفسير التاريخ الإسلامي على أساس قومي ، واعتبر الإسلام مرحلة من مراحل التاريخ العربي ، وقد أدّى دوره في تلك المرحلة التاريخية ، ولا يستطيع في الوقت الحاضر ان يؤدي دوراً هاماً ، وعليه في هذه المرحلة أن ينسحب من الميدان ويخلي الطريق للعقيدة القومية الجديدة ، وبعد أن ساروا شوطاً في هذا الطريق شعروا بأن القومية لا تكفي

وحدها أن تكون بديلاً للإسلام ، فهي في حقيقتها انتماء وانتساب ، وهم أرادوها فكرة ورسالة ، ولكنها لم تقو على حمل ما حَمّلوها ، مما جعلهم يقولون بالإشتراكية إلى جانب القومية ، ولكن الاشتراكية مذهب غربي ، والقومية انتماء عربي ، فكيف يمكن التوفيق بين العربي والغربي ، ومن هنا كان لا بد من التزاوج بين القومية العربية والاشتراكية الغربية فكان المولود الجديد : الاشتراكية العربية ، وحينما سئلت الاشتراكية العربية من أين جاءت ؟ قالت ، إنها نبعت من أرض العروبة وواقعها !!!

إن صلة العرب بالإسلام صلة أصيلة عميقة . ولقد ربط الله بينهما بعروة وثقى لا انفصام لها ، ومهما حاول أعداء الإسلام والعرب ـــ في الداخل والخارج ـــ فإنهم لن يستطيعوا أن يقطعوا ما وصله الله ، وسيبوؤون بالفشل الذريع ، وتذهب جهودهم أدراج الرياح رغم ما أوتوا من سعة الحيلة والمكر والخداع .

ولن يطول على الأمة ذلك اليوم الذي تعود فيه الأمور إلى نصابها ، وتطوى فيه هذه الصفحة النشاز في تاريخ أمتنا الحديث ، فلقد بدأ المارد المسلم يتململ داخل القمقم الذي حبس فيه في غفلة من الزمن وقد شعر أنه أُخِذَ غدراً وعلى حين غرّة ، ولن يغفر للذين أساؤوا إليه ، وسيعرف كيف يحاسبهم على غدرهم وخياناتهم ، وسيلتئم شمل هذه الأمة من جديد ويعود العرب إلى أداء رسالتهم الإسلامية الخالدة وسيجدون إخوانهم المسلمين من غير العرب يقفون إلى جانبهم يشدون من أزرهم ويجاهدون معهم صفاً واحداً وقلباً واحداً وأمة واحدة .

وإن هذه النظرة الإسلامية إلى العرق في أنه لا يقوى أن يكون مقوّماً أساسياً في تكوين الأمَّة هي التي بدأت تسود العالم المعاصر ، حيث أصبح الالتقاء على المبادىء والأفكار والفلسفات سمة الاتجاهات الحضارية الحديثة ، ومما يساعد على ذلك ويعجّل به أن العالم اليوم غدا كمدينة واحدة بفضل ما أضافته يد الإنسان من اختراعات واكتشافات ساهمت إلى حد كبير في

تقريب البلاد المتباعدة ، وإزالة كثير من الفوارق بين الشعوب في أنماط المعيشة ووسائلها ؛ مما يجعل العالم يقترب أكثر فأكثر من الالتقاء على عقيدة واحدة ، وبهذا تبدو التجمعات القومية والإقليمية وكأنها من مخلفات القرون الماضية ، وبذلك يكون الإسلام قد سجّل سبقاً حضارياً كبيراً ، حينما جعل الأمة تقوم على أساس العقيدة منذ أربعة عشر قرناً وفي وقت كان يبدو فيه مثل ذلك أمراً غريباً مستنكراً ، ولعلّ هذا يفسِّر لنا شيئاً من حكمة ختم النبوّة بمحمد ـــ ﷺ ـــ وختم الرسالات السماوية الخاصة برسالة الإسلام العامة للناس جميعاً ، وأن الناس بإمكانهم أن يكونوا أمة واحدة تذوب بينهم الفوارق المصطنعة إذا ما جمعتهم عقيدة الإسلام ، وهكذا تتطور البشرية يوماً بعد يوم لتلحق بقيم الإسلام الخالدة التي تسع البشرية كلها والزمن كله بما يَجِدُّ فيه من تطورات وتطلعات .

إن فكرة قيام الأمة على أساس عرقي كما دعا إليها هتلر ، لم تلق تجاوباً حقيقياً عند الناس لأنها فكرة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، ذلك أن دماء الشعوب قد تمازجت ، واختلطت أصول الناس نتيجة التزاوج ، ولا يمكن الجزم بأن عرقاً من الأعراق البشرية قد احتفظ بنقائه وصفائه . ومن ثم لم يكن لهذه الدعوة نصيب من النجاح ، ولعلها قد انتهت حياة المنادي بها . وإذا كان هذا ينطبق على الأجناس البشرية في الغرب ، فلا شك أنه ينطبق على الشرق أيضاً ؛ إذ حدث فيه من التمازج والاختلاط والتفاعل بين الشعوب ما أذاب كثيراً من الفوارق بينها ، وجعلها تقترب من الوحدة في كثير من شؤون حياتها وبخاصة في البلاد التي كانت تنتسب إلى دين واحد أو عقيدة جامعة .

وأمام هذه الحقائق الواقعية الدامغة تراجع المنادون بفكرة « العرق » ولم يعد يهمهم أن يتثبتوا من نقاء « العروق » وصفاء « الأجناس » ، واكتفواباعتبار التقارب الواقعي الحاضر بديلاً للتقارب العرقي المظنون ، وان ذلك كافٍ في رأيهم لأن يُكَوِّن أمّة واحدة دونما حاجة إلى البحث في الأصول

النسبية والقبلية . وبذلك يكون « العرق » فقد كونه مقوِّماً حقيقياً من مقومات الأمة في نظر القائلين به . بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك حين اكتفى أن يكون للعرق دور ما في مرحلة سابقة من مراحل تكوين الأمة خلال التاريخ .

ومن كل ما تقدم نرى أن فكرة « العرق » ـــ كمقوم من مقومات الأمة ـــ قد طرحت أول ما طرحت في ألمانيا ، وأنها انتهت بعد ذلك لأن تكون وهماً وخيالاً ، حيث تراجع القائلون بها إما على سبيل الحقيقة بتخليهم عنها ، وإما على سبيل المجاز بتأويلهم لها إلى معان جديدة لم تكن مقصودة بها أصلاً . وأيّاً ما كان الأمر فقد انتهت الفكرة على أيدي القائلين بها ، وفي البلاد التي ولدت فيها ، ومع ذلك كله فقد انتقلت الفكرة إلى بلاد العالم الإسلامي متأخرة جداً ، وبعد أن فقدت كل مبررات حياتها ، إلّا أن التقليد الأعمى لكل ما هو غربي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، هو الذي دفع المتربصين والمشككين والمرجفين إلى أن يستوردوا مثل هذه البضائع الفاسدة في سوق الفكر ليبلبلوا بها أفكار المسلمين ، وليوقعوهم في مخططات الاستعمار ومشاريعه الهادفة إلى الحيلولة دون نهضة حقيقية لهذه الأمة ، وبذلك تكون لهم فرصة تاريخية نادرة أن يعبثوا بمقدرات هذه الأمة ، وأن يحاولوا تغيير مسارها الحضاري التاريخي بعيداً عن دعوة الإسلام ورسالته الخالدة . ومع الأسف فقد جازت مثل هذه الأفكار على كثير من المتواضعين في عقولهم وأفكارهم في عالمنا الإسلامي ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن شبابنا المعاصر بدأ يفقد المناعة الأصيلة التي عرف بها المسلم خلال التاريخ ، وذلك لابتعاده عن مصادر ثقافته ودينه ، وعدم التزامه بقيمه وأخلاقه . وأملنا كبير في أن يعي شبابنا واقعهم ويدركوا مسؤولياتهم ،فيحفظوا أنفسهم من السقوط أولاً ليكونوا قادرين على مد يد العون للآخرين ثانياً ، وبذلك يحولون دون ما يُراد لأمتهم من ضياع ودمار .

ب ــ الأرض :

يراد بالأرض التي تشكل مقوماً من مقومات الأمة ــ عند القائلين بها ــ الوطن الذي يعيش فوقه أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، وأن هذا الوطن قد يؤثر في ساكنيه ويمنحهم بعض خصائصه التي امتاز بها مناخه الطبيعي أو طبيعته الجغرافية بما فيها من لين أو قساوة ، وما إلى ذلك من آثار الأرض التي ربما تطبع سكانها بطابع مميز لهم عن غيرهم .

والإسلام ابتداءً لا ينكر على المسلم أن يتعلق قلبه بحب البلد الذي نشأ فيه فهذا أمر طبيعي فطري لا يمكن تجاهله أو إنكاره ، وكذلك تأثر الإنسان بالبيئة التي نشأ فيها واكتسابه من الأرض التي عاش فيها بعض خصائصها ، فهذه أمور تحدث بشكل عفوي لكل من يعيش على هذه الأرض .

إلا أن الإسلام لا يقف بالمسلم عند حدود الأرض التي نشأ عليها شهدت ذكريات طفولته وصباه ، بل إنه يمد عينيه إلى الأرض كلها ، فالأرض كلها من خلق الله ، وعلى المسلم أن يخرج من حدود إقليمه الصغير ليتعرف على الكون الكبير وما فيه ، وليرفع كلمة التوحيد في كل مكان ، فالأرض كلها بحاجة إليه ، بحاجة إلى عقيدته التي يحملها ، بحاجة إلى رسالته ، فلا يجوز له أن ينطوي على نفسه في حدود مغلقة ، ﴿ إنَّ الأرضَ لله يُورثها من يشاءُ من عبادِهِ ﴾ إنه الخليفة في الأرض ، فلا ينبغي له أن يقبع في ركن من أركانها أو زاوية من زواياها يجتر ذكرياته الوطنية وينسى من حوله وما حوله ، إن الأرض كلها يمكن أن تكون وطناً له حينما يحمل إليها رسالته ، وينقل إليها أمانته ، وهذه مهمته ، فعليه أن يعرف قدره ، ويكون على مستوى المسؤولية ألتي أنيطت به .

إن فكرة الأمة التي تقوم على أساس عقدي ديني يضم شعوباً مختلفة وأقواماً متعددة لا يمكن أن تقبل بفكرة وطن محدود ، فالوطن الإسلامي إن صح التعبير ليس محدداً بقطعة من الأرض وإنما هو كل مكان في الأرض وصل

إليه الإسلام . والإسلام بحسب تصور المسلم لا بد له أن يعم الأرض كلها : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ وهكذا فالدين الذي قال بأمة عالمية تضم كل الأقوام والشعوب ، لا يمكن أن يقبل بفكرة الوطن المحدود التي يرضى بها الإقليميون العاكفون على اجترار وطنية ضيقة حبسوا فيها أنفسهم . وهكذا يوسع الإسلام آفاق المسلم في كل شيء ويخرجه من القيود والأغلال التي تفرضها النظرات والنظريات البشرية المحدودة والصادرة عن عقول قاصرة محكومة باعتبارات مكانية أو زمانية أو عاطفية .

وإذا كانت الأرض أو الوطن في الماضي تمنح سكانها بعض خصائصها ، فإن هذا الأمر في عصرنا الحالي في طريقه إلى الزوال ، بعد أن ذابت الحدود الجغرافية تحت تأثير المواصلات الحديثة التي جعلت العالم كله كأنه بلد واحد ، وأرض واحدة ، وبعد أن استطاع الانسان التغلب على الظروف الطبيعية القاسية بما كشفه العلم من مخترعات جعلت نمط الحياة البشرية يسير في طريق الوحدة وكلما تقدم بنا الزمن ، كلما زادت هذه الوحدة ، وهذا التقارب ، وبالتالي فإن هذا المقوم من مقومات الأمة الذي هو الأرض والوطن ــ عند القائلين به ــ يبدو أيضاً وكأنه مودع لهم بعد أن أتت عليه منجزات العلم ومكتشفاته ، ولن يبقى أمام البشرية إلّا أن تعتصم بالمقوم الوحيد الذي يجمع الناس كلهم في أمة واحدة تذوب فيها فوارق الجنس والأرض واللون ، ولن تجد ذلك إلّا في الإسلام العظيم الدين العالمي الذي لا يعرف الحدود والقيود ، والذي جاء هداية للناس عامة ، ورحمة للعالمين شاملة .

وعلى فرض بقاء ذلك كله فالإسلام لا يمنع المسلم أن يشعر بحنين إلى وطنه الأصلي ومدارج طفولته وصباه ، ولكنه لا يسمح له أن يحبس نفسه في هذا المضيق ، وإنما يرفع من تصوره ويمده ويوسعه ، ويقبل منه ما يمكن أن يكون قد اكتسبه من آثار نشأته في أرض معينة أو طبيعة خاصة ما لم يتعارض ذلك كله مع عقيدته الدينية ، وانتمائه إلى أمة عالمية ذات رسالة تستهدف صلاح البشرية كلها وإن هذا الحنين نحو الموطن الأصلي وتلك الخصائص

والطباع التي يمكن ان تكتسب من البيئة والموطن لا تكفي في نظر الإسلام لأن تكون عنصراً أو مقوماً من مقومات الأمة ، وإنما يبحث عن ذلك ويقول به الذين لا يملكون عقيدة جامعة ، أو ديناً موحِّداً ، أما نحن الذين جمعنا الله تحت لوائه ، وربط بين قلوبنا بحبل من عنده ، فلا تلفت انتباهنا مثل هذه الروابط ، ولا تشدّنا إليها مثل هذه التطلعات لأننا نملك ما هو أقوى وأمتن وصدق الله العظيم : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتمْ أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ وصدق الله العظيم : ﴿ لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفْتَ بين قلوبهم ولكنَّ اللهَ ألّفَ بينهم ﴾ .

جـ ــ التاريخ :

لا يستطيع الكتاب والمفكرون حينما يتحدثون عن الأمة والعناصر المكونة لها أن يغفلوا شأن التاريخ ، وهم يقصدون به تاريخ كل أمّة بما فيه من أمجاد ونكبات ، ولا شك بأن للتاريخ أثراً كبيراً في صياغة أجيال الأمة حيث تأخذ من أمجادها الماضية حافزاً لصنع أمجاد جديدة ، وتحاول أن تتجنب الأخطاء التاريخية التي ربما وقع فيها أسلافهم .

ولما كان مفهوم الأمة اقترن من الناحية العملية عند جميع الأمم بالمعنى القومي كما سبق أن بيناه وشرحناه ، فقد اختلط تاريخ الأمة ــ عندهم ــ أيضاً بالمفهوم القومي ، وهكذا غدا تاريخ الأمَّة كأنه تاريخ القوم في كل عهودهم ، ومن ثم تحرص الأمم ــ بهذا المفهوم القومي على أن تبعث تاريخها القديم ــ مهما كان موغلاً في شعاب الماضي ــ بما فيه من محاسن ومساوىء ، وبما يضم في طياته من أمجاد تبعث على الاعتزاز ، ومخازٍ ينَدى لها الجبين خجلاً . بل وربما حاولوا تبرير هذه المخازي من باب الحمية الجاهلية والتعصب الأعمى الذي لا يريد الاعتراف بالحقائق الموضوعية الْمُرَّة .

وقد سرت هذه الموجة في بعث التاريخ القديم وإحيائه في البلاد الإسلامية بعد ما تم من القضاء على الخلافة وتمزيقها ، ذلك أن الذين خططوا لذلك أرادوا فعلاً أن تنقسم الأمة الإسلامية إلى أمم ، وحيث انه لا بد لكل أمة من تاريخ ، ولما كان تاريخ الأمة الإسلامية واحداً ، فلا بد إذن من بعث تاريخ هذه الشعوب قبل دخولها في الإسلام ، ومن ثم وجهت الطاقات إلى بعث تاريخ الجاهليات ، ولما كان الشعور الإسلامي ينفر بطبعه من كل ما هو جاهلي أوله صلة بالجاهلية فقد أضفوا عليها أسماء حديثة وقالوا :

حضارات !! ورصدت الأموال الكثيرة للكشف عن الأصنام والتماثيل ، وإقامة المتاحف الضخمة للمحافظة عليها .

إن مثل هذا العمل ليس خطراً على المفهوم الديني للأمة فقط ولكنه خطر أيضاً عليها بالمفهوم القومي ، لأن التاريخ القديم في البلاد العربية ليس تاريخاً واحداً ، وجاهليته ليست جاهلية واحدة ، وبالتالي لن يكون التاريخ القديم الجاهلي عامل وحدة في تكوين الأمة ــ بمعناها القومي ــ ولكنه سيكون عامل تفريق ، لأنه يظهر كل قطر من الأقطار بأن له تاريخاً غير تاريخ الآخر ، وبذلك لا يكون التاريخ مقوماً من مقومات الأمة ، ولكنه يكون معوقاً من معوقاتها ، وعقبة كأداء تحول دون قيامها .

وإذا كان الإسلام قد أقام « الأمة » على أساس الانتماء الديني الذي يضم البشرية بكل أجناسها وعناصرها ، واعتبر وطنها هو الأرض كلها ــ ما كان واقعاً منها تحت سيطرتها وما سوف يقع ــ كذلك فإنه قد ينظر إلى التاريخ نظرة تنسجم مع عالمية الأمة وعالمية الوطن .

إن تاريخ الأمة الإسلامية لم يبدأ منذ بعث الرسول محمد ــ ﷺ ــ ولكنه بدأ منذ وجد آدم على ظهر هذه الأرض ، واستمر بعد ذلك في كل أمة استجابت لدعوة نبيها ، فهو تاريخ موصول بدأ ببعثة أول نبي ويستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إنه تاريخ الدين كله الذي هو الإسلام ﴿ إنَّ الدينَ عند الله الاسلام ﴾ ، ومن ثم نجد القرآن الكريم حفل بتاريخ الأنبياء

ومواقفهم ودعواتهم وبصَّر المؤمنين بأن الأنبياء كلهم خلال التاريخ البشري الطويل ينظمهم سلك واحد ، ويصدرون في مواقفهم عن عقيدة واحدة ، ويتلقون الوحي من إله واحد ، فهم إذن أمة واحدة وإن تباعدت بهم الأزمان وتعددت بهم الأوطان .

وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً للتفسير والتأويل حين ذكر الأنبياء والرسل السابقين ثم قال لنا : ﴿ انّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ وحينما قال مخاطباً لنبينا عليه الصلاة والسلام بعد ذكر الأنبياء السابقين :

﴿ أُولئك الذين هدى اللهُ فبهداهمُ اقْتَدِه ﴾ .

وإذن فتاريخ هذه الأمة تاريخ عريق ضارب في شعاب الزمان ، تاريخ عريض لا يحده مكان ، تاريخ مواكب الإيمان يقودها الأنبياء والمرسلون في معارك متصلة مع الجاهليات في كل عصر ومصر ، إنه تاريخ حافل مليء بالدروس والعبر ، إنه ذخيرة كبيرة لهذه الأمة عليها ان تحسن قراءته وتدبره كسنن اجتماعية ثابتة تستطيع الاستفادة منه في حاضرها ومستقبلها .

ويرى المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي أن الوقائع التاريخية تعرض في القرآن الكريم بطريقة تختلف عن طرق المؤرخين فلقد اعتاد المؤرخون أن يعرضوا التاريخ : إما بالرواية : التي هي جمع الوقائع التاريخية بحسب ترتيبها الزماني دون مراعاة الربط بينها وبيان أسبابها ونتائجها .

وإما بالدراية وهي : جمع الوقائع بالترتيب العقلي مع الزماني حيث يلتزم المؤرخ طلب السبب لكل ما وقع ، ليعلم أن كل متأخر نتيجة لمتقدم . والتاريخ بكلا قسميه ليس إلا علم ما مضى وغاب عنك من أحوال بني نوعك .

وأما الوقائع التاريخية في القرآن الكريم وفي الكتب المقدسة ، فإننا نجدها مترتبة ترتيباً أخلاقياً ، وأن العالم تحت قدرة الله وتصرفه ، وأن الأمّة تسمو وتهبط حسب أخلاقها » .

ومن هنا نرى القرآن الكريم يضفي على التاريخ معنىً خاصاً . ويقدمه لنا على أنه سنن ثابتة يحكمها ناموس واحد ، ومن ثمّ فهو لا يحفل بالزمان والمكان والتفاصيل إلا بالقدر الذي يوضح الهدف والمغزى من الحادثة التاريخية ، كما انه لا يقصد بذلك مجرد العرض والإخبار ، وإنما يتعدى ذلك إلى التربية بالقدوة الحسنة ، والاعتبار بمصير الأمم الغابرة ، وكشف السنن التي تحكم الحياة الإنسانية والتجمعات البشرية .

إن التاريخ ــ بهذا المعنى ــ يمثل التطبيق العملي للمثل والقيم الدينية التي قامت على أساسها « الأمة » بالمعنى الإسلامي . ولا شك بأنه زاد كبير لأمتنا المسلمة تتزود منه في طريقها اللاحب الطويل المليء بالأشواك والمفاجآت . ولم تُزوَّد بذلك كله إلّا لأنها وارثة الأمم والرسالات ، حيث ختم الله بنبيِّها النبوّات ، وحفظ لها أصولها النظرية بحفظه لقرآنها وسنتها بعد أن اختار نبيّها إلى جواره ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس .

د ــ اللغـة

يميل بعض المفكرين إلى اعتبار اللغة عنصراً أساسياً في تكوين الأمة ، بينما يرى بعضهم أن هناك أمماً تتكلم أكثر من لغة واحدة ، ومن ثم لا يقيم كبير وزن إلى عنصر اللغة .

أما نظرة الإسلام إلى هذا العنصر فهي كنظرته إلى بقية العناصر التي قدمنا الكلام عليها ، فهو لا يعتبره مقوماً من مقومات الأمة ، لأنه يعتبر الدين هو المقوم الأول والأخير غير أنه ليس معنى ذلك أن الإسلام لا يقيم له وزناً .

لغة الدين واحدة

لقد جعل الإسلام لغة الدين واحدة وهي العربية ولذلك فقد أنزل الله كتابه بلغة العرب واختار رسوله من العرب ، فكانت مصادر الدين النظرية الكتاب والسنة ؛ باللغة العربية فكان لا بد لمن أراد دراسة الدين والتعمق فيه من تعلم العربية ودراستها . وفعلاً أقبل المسلمون على تعلم العربية ودراستها ، وتعمقوا في ذلك .

وربما نبغ عدد منهم في بعض الدراسات اللغوية والدينية ، والمكتبة العربية مليئة بالمؤلفات والكتب التي شارك فيها المسلمون جميعاً وهم من شعوب مختلفة في الأصل ، إلّا أن إيمانهم بالإسلام العظيم دفعهم إلى حب العربية ودراستها ، وكثير منهم ربما نسي لغته الأصلية ، واعتبر العربية لغته .

إن هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام كانت لها آثار كبيرة على اللغة العربية ، ولا بأس أن نلم ببعضها هنا :

إثراء اللغة

إن اختيار العربية لغة لكتاب الله ، قد أثرى هذه اللغة بالمعاني والاصطلاحات الجديدة التي جاء بها الإسلام الحنيف ، وبذلك خرجت العربية من عزلتها اللغوية التي كانت تتمثل في استعمال المفردات الخاصة بالبيئة الجاهلية ، إلى استعمال مفردات كثيرة فرضتها طبيعة الرسالة الإسلامية وثقافتها .

وبعد أن كان تراث الجاهلية اللغوي يتمثل في قصائد ومعلقات تركها الشعراء أصبح تراثها في الإسلام ما لا يحصى من الكتب والمؤلفات والتي يدور معظمها حول رسالة الإسلام وعلوم القرآن والعربية وبقية العلوم والفنون الأخرى . ولا شك بأنّ هذا كان كسباً كبيراً لهذه اللغة .

لغـة عالميــة

لقد خرج الإسلام بالعربية من عزلتها المكانية في جزيرة العرب ، وسار بها مشرّقاً ومغرّباً حتى غدت لغة عالمية ، وما زالت العربية إلى اليوم ترافق انتشار الإسلام في كل مكان يحط فيه رحاله ، فلا يدخل قوم في دين الله إلا وتبدأ المدارس العربية بالانتشار من أجل تعليم القرآن وفهم رسالة الإسلام .

ومع أن الله ــــ سبحانه ــــ قد اختار العربية لغة لدينه فإنه لم يجبر غير العرب على ترك لغاتهم الأصلية ، وبذلك تكون العربية اللغة الرسمية والمشتركة بين جميع الشعوب الإسلامية ، إلا أنه مع طول الوقت والزمن نرى أن اللغات المحلية التي تتكلم بها شعوب إسلامية كثيراً ما تضعف ويقل التخاطب بها يوماً بعد يوم ، وبذلك تحل العربية محلها في التخاطب ، وبذلك يقترب المسلمون يوماً بعد يوم من العربية ويبتعدون عن لغاتهم القومية الخاصة ، هذا إذا سارت الأمور سيراً طبيعياً وفي إطار الحكم الإسلامي الصحيح أما إذا كانت الجاهلية هي التي تتحكم فربما سارت الأمور باتجاه معاكس ، كما رأينا ذلك في فترات الانحراف التي ذكرنا طرفاً منها فيما سبق .

لغــة خالدة

لقد أعطى الإسلام للعربية صفة البقاء والخلود ، حينما جعلها لغة القرآن الخالد والدين الخالد ، حيث قد تكفل الله بحفظ الذكر ، والذكر : لفظ ومعنى ، ولا يمكن فهمه إلّا بلغة العرب ، وإذن فلا بد من بقاء لغة العرب حتى يمكن فهم القرآن الكريم ، ومن ثم نجد عالماً هندياً كالإمام عبد الحميد الفراهي ، يصرّ على أن تكون مؤلفاته بالعربية ، مع حاجة قومه الهنود إلى كتابات بلغتهم ، ولما سئل عن ذلك قال : أردت لكتبي الخلود .

إن هذه الصلة الوثيقة بين العربية والإسلام أمر لا يمكن فصمه ؛ لأنه قدر إلهي وقد أدرك اعداء الإسلام ما لهذه الصلة من أثر كبير في قوة الإسلام والمسلمين ، ورأوا أنهم إذا أمكنهم إضعاف العربية أو استبدالها ، فسيحققون

نصراً كبيراً في إبعاد المسلمين عن قرآنهم ودينهم ، ومن ثم انطلقوا يدعون إلى اللهجات العامية لتحل محل العربية الفصحى ، كما دعا بعضهم إلى استبدال حروفها بحروف لاتينية ، ليقطع صلة الأجيال الحاضرة بثقافتها وتراثها وتاريخها وقرآنها ، كما فعل أتاتورك في تركية .

إن المكانة التي تحظى بها اللغة العربية في نفوس المسلمين جميعاً من عرب وغير عرب أكبر بكثير من المكانة التي يحاول دعاة القومية أن يعطوها للغة ، إنهم في الظاهر يجعلونها عنصراً بارزاً من عناصر تكوين « الأمة » بالمعنى القومي ، ولكنهم في الواقع لا يهتمون بدراستها وفهمها كما يهتم المسلم ، لأن ارتباط المسلم بها ارتباط ديني عقدي ، فهو يحرص على فهمها والتعمق في أسرارها ليفهم أسرار كتاب الله تعالى . أما الذي لاتربطه باللغة إلّا رابطة قومية ، فربما يكتفي فيها بفهم سطحي ساذج ولا يهمه بعد ذلك إن تكلم بلهجة محلية دارجة في تدبير أموره الخاصة .

---

١ ـــ جاء في هامش صفحة /٣٣٠/ من الجزء الأول من كتاب الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي .

« سألت في الحرب العامة صديقيَّ سليمان نظيف وجناب شهاب الدين من أعاظم أدباء الترك وعلمائهم ـــ أن يمليا عليّ جريدة بأسماء كتب العلم التي وضعها الأتراك العثمانيون في العهد الأخير فأنكرا سؤالي وقالا : وهل تذهب إلى أننا أمة علم ، ومن أين نأتيك بهؤلاء المؤلفين الذين لم ينشؤوا بين أظهرنا إلى اليوم ؟ نحن أمة خيال وأدب ، وجلّ ما عندنا من هذا القبيل شعر وقصص نقل أكثره عن اللغات الأوروبية ، وما خلّفه الموسومون بالعلم من أبنائنا في فنون الحرب والبحر والقانون والإدارة فإنما هو مترجمات ، لا يدلنا في متونها وشروحها وحواشيها إلا القليل الذي لا يؤبه له . قالا ذلك وكانا يأسفان لأنه لم يتم للسلطان سليم تنفيذ منهاجه في نشر اللغة العربية ، وجعلها لغة الدولة الرسمية ، قائلين لو وُفِّق إلى تحقيق أمنيته لكان العثمانيون غير ما هم عليه اليوم ، يكتبون العربية مشبعة بهواء الآستانة الجميل ورقّةِ بيزنطية ، ولأدمجوا حضارة العرب فيهم وكثّروا سوادهم ، فأتوا بمدنيةٍ جديدة توحدت فيها جميع عناصر السلطنة » .

إن الإسلام وإن كان يجعل الدين المقوم الأول والأخير للأمة إلّا أنه قد ربط بين الدين واللغة العربية بعروة وثقى ، ومن ثم كان علماؤنا يقولون إن تعلم اللغة العربية من الدين ، لأن فهم الدين متوقف عليها .

والمعروف أن العربية الفصحى تنتشر وتعم بانتشار العلم والثقافة ، وهذا ما لاحظناه في جيلنا السابق ، إلّا أن الملاحظ في الجيل الناشيء أنه ضعيف في العربية الفصحى رغم كثرة المدارس وانتشار التعليم ، كما يلاحظ زحف العامية الدارجة في السنوات الأخيرة على وسائل الإعلام كالإذاعة والتلفزيون وغيرهما ، وهذه ظاهرة خطيرة لا يجوز السكوت عليها ، لأن السكوت عليها جريمة بالمعنى الديني والقومي أيضاً . ومن ثم فليس هناك مبرر واحد يسمح لهذه الظاهرة بالاستمرار ، وعلى العلماء والمفكرين وأصحاب النفوذ أن يبذلوا كل جهدهم لإيقاف هذا الزحف العامي على لغة العلم والدين ، وإلا تعرضت بلادنا لكارثة كبيرة لا يمكن تلافيها بسهولة .

إن ولاء المسلم أولاً وقبل كل شيء هو لعقيدته الدينية التي تضمنها كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، كما أن تاريخه وأمجاده هو تاريخ الإسلام خلال العصور .

وإذا أردنا اختصاراً أكثر قلنا : إن الإسلام بالنسبة للمسلم عقيدة وعبادة وشريعة وخلق ونظام حياة وثقافة وحضارة وتراث ، ولقد كانت اللغة العربية وعاء ذلك كله خلال أربعة عشر قرناً من الزمان ، ومن ثم كان ارتباط المسلم بالعربية ارتباطاً لا فكاك منه إذا أراد أن يحقق لنفسه فهماً في دين الله ، أو أراد أن يضرب في الثقافة الإسلامية بنصيب .

★ ★ ★

وهكذا نرى أن كل ما طرح على المسلمين في هذا العصر باسم « مقومات الأمة » أو « العناصر المكونة لها » لا يقوم على أساس ولا يستند إلى دليل . وقد رجعت إلى معظم ما كتب ــ في هذا الموضوع ــ بأقلام من يسمون « المفكرون القوميون » فلم أر إلّا كلاماً إنشائياً مزخرفاً يعتمد على المغالطة حيناً وعلى التبعية الفكرية للغرب حيناً آخر ، كل ذلك بغية قطع هذه الأمة عن جذورها الاسلامية الأصيلة ، وتحويل خط سيرها في حاضرها ومستقبلها بعيداً عن الاسلام العظيم .

أمــة مسلمــة

وبناء على ما تقدم ، فقد اختار الله لهذه الأمة اسماً يعبر عن حقيقة ما قامت عليه من عقيدة ودين ، فلم يختر لها اسماً عرقياً ولا عنصرياً ؛ لأنه يريدها أن تسير في طريق العقيدة التي تحكم حياتها ، ويباعد بينها وبين أسباب التعصب والعداوات التي تمزق وحدتها وتضعها فريسة سهلة أمام عدوها نعم لقد اختار الله لهذه الأمة أن تكون أمة مسلمة ومسلمة فقط ، ولكن ماذا تعني هذه التسمية وهذا الوصف ؟

إنها الصفة الأولى والأخيرة لهذه الأمّة ، والتي غلبت عليها حتى أصبحت عَلَماً ، وهي تدل على خضوع هذه الأمّة لخالقها وبارئها ، واستسلامها لشريعته وحكمه ، وانقيادها له في كل ما أمر ونهى ، وسيرها على طريقته وهداه ، واستلهامها لكتابه في كل ما يعرض لها من أمور ومشكلات في خط سيرها الطويل المليء بالأشواك والصعاب ، والمحفوف بالمخاطرّ والمهالك .

ومن هنا فهذه التسمية ، لم تأت عبثاً ، والله سبحانه وتعالى هو الذي اختار لنا هذه التسمية : ﴿ وجاهدُوا في الله حقَّ جهاده هو اجتباكم وما جعلَ عليكم في الدين من حرجٍ ملة أبيكم ابراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداءَ على الناس ... ﴾ — الحج : ٧٨ —

وكان وجود هذه الأمَّة أُمْنِيَّةً في ضمير إبراهيم عليه السلام ، وحُلما يراود خياله وهو غارق في مناجاة ربه ، يبني البيت ويرفع منه القواعد ، ليكون هذا البيت مثابة للناس وأمنا :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهنّ ، قال إني جاعِلُكَ للناسِ إماماً ، قال : ومِنْ ذريتي ؟ قال لا ينالُ عهدي الظالمين . وإذْ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمنا ، واتَّخِذُوا من مقامِ إبراهيمَ مُصَلّى ، وعهدنا إلى إبراهيم

واسماعيل أن طهّرا بيتيَ للطائفينَ والعاكفين والرّكّعِ السجود . وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً وارزقْ أهله من الثمراتِ مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومَنْ كفر فأُمَتِّعُهُ قليلاً ثم أضطرهُ إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ : ربنا تَقَبَّلْ منا إنك أنت السميعُ العليم . ربنا واجْعَلنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ومن ذريتنا أمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتكَ ، ويعلِّمُهمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يَرْغَبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلّا مَنْ سَفِهَ نفسَهُ ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذْ قال له ربُّهُ أسْلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين . ووصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ : يا بَنيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكمُ الدينَ ، فلا تَموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . أمْ كنتم شهداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموتُ ، إذْ قال لبنيه : ما تعبدونَ مِنْ بعدي ؟ قالوا نعبدُ إلهكَ وإله آبائك إبراهيمَ واسماعيلَ وإسحاق إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمون ﴾ . ـــ البقرة : ١٣٣ وما قبلها ـــ

ومن هنا تبدو أصالة هذه التسمية وعمقها ، ويبدو هذا التكرار ـــ : « ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ... ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .... إذ قال له ربه أسلمْ . قال أسلمت لرب العالمين ... فلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون .... قالوا نعبدُ إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون .... » ـــ يبدو هذا التكرار أمراً مقصوداً لدلالته الكبرى على صبغة هذه الأمّة ﴿ صبغةَ اللهِ ومَنْ أحسنُ من الله صبغةً ﴾ ، ولا يجوز لهذه الأمّة بحال أن تغير هويّتها ، وأن تسمي نفسها باسم مستعار يخفي حقيقتها ، ويشوّه شخصيتها ، ويُعَرّضها للمهانة والأذى بعد أن اختار الله هذه التسمية المطابقة لها تمام الانطباق .

والأمّة المسلمة هي التي تقوم الروابط بين أفرادها على أساس العقيدة ، والعقيدة وحدها ، دون سائر الاعتبارات والروابط التي تعارف عليها البشر ،

ومن ثمّ يَلْفت الله ــ سبحانه وتعالى ــ نظر إبراهيم ــ عليه السلام ــ إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . وإذن فالأمر ليس أمر ذريّة فقط ، وإنما هو أمر الذرية الصالحة ، أو الذرية الظالمة . ويبدو أن ابراهيم ــ عليه السلام ــ قد استوعب هذه الفكرة بسرعة فائقة حتى إنه ليقول بعد ذلك مباشرة : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار ﴾ .

وواضح هنا دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وارزقْ أهلهُ من الثمراتِ مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ فقد برزت رابطة العقيدة سافرة قوية في الوقت الذي توارتْ فيه روابط الأرض والتراب ، على أن الاسلام يحترم هذه الروابط الأرضية ، ولا يقلل من شأنها إلّا إذا تعارضت مع رابطة العقيدة ، ويقول الله تعالى في ذلك : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ كما يقول سبحانه : ﴿ وآتِ ذا القربى حقّهُ والمسكينَ وابن السبيل ﴾ بل إنه ليقيم نظام الإرث كله على أساس رابطة النسب ، ولكن ذلك كله ضمن إطار رابطة العقيدة ، كما قدمنا .

أما إذا تعارضت رابطة النسب مع رابطة العقيدة ، فحينئذ : « لا توارث بين أهل ملتين شتى » وحينئذ لا تجوز طاعة الوالدين في الشرك : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ .

وهذا نوح عليه السلام ينادي ابنه : ﴿ ونادى نوح ابنه ــ وكان في معزلٍ ــ يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء ، قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلا من رحم وحالَ بينهما الموجُ فكان من المُغْرَقين .... ونادى نوح ربَّهُ قال : إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدكَ الحقُّ وأنتَ أحكمُ الحاكمين . قال : يانوح إنه ليسَ من أهلكَ إنه عملٌ غير صالح ﴾ . ــ هود : ١٦ وما قبلها ــ

هكذا إنه ليس من أهلك الذين وُعِدْتَ بنجاتهم ، لقد فرقتْ بينكَ وبينه العقيدة ، حتى لم يعد هناك اعتبار لصلة القربى بينك وبينه .

بل هذا هو إبراهيم نفسه ـــ عليه السلام ـــ يحب ابنه اسماعيل حباً يملك عليه نفسه وجوارحه ، فيأمره الله تعالى بذبحه ، فيستجيب لذلك مستسلماً لأمر الله ، ويُقدم على ذبح ولده بيده ، متقرباً في ذلك إلى الله تعالى .

إنه أروع مثال عرفه التاريخ في تعارض رابطة العقيدة مع رابطة الدم . بل إنه أروع مثال عرفه التاريخ في تغلّب رابطة العقيدة على رابطة الدم . بل إنه أروع مثال عرفه التاريخ أن يؤمر نبيٌّ بذبح ابنه النبي تقرباً لله تعالى ، وتصحيحاً للقيم والروابط التي ينبغي أن تفيء إلى العقيدة ... وإلى العقيدة وحدها .

وبعد : هذا هو مفهوم الأمة في لغة العرب وفي القرآن الكريم ، وعلى هذا المفهوم قامت الأمة المسلمة خلال التاريخ ، ولم تعرف الأمة الاسلامية في تاريخها الطويل مفهوماً آخر مغايراً للمفهوم الإسلامي ، ولقد عرفنا محاولات المستشرقين في مطلع هذا البحث والتي تهدف إلى التشكيك في أصالة عربية هذه الكلمة بحجة أن لها معاني كثيرة لا تجمع بينها صلة اشتقاقية ، وقد بيّنّا خطأ ونتائج هذا الاتجاه الاستشراقي بالأدلة القاطعة وأنه لم يوقعهم في هذا الخطأ إلا حقدهم على هذه الأمة وعلى تراثها وتاريخها .

وكما تتعرض القيم الإسلامية لهجوم المستشرقين الماكر ، فإنها كذلك تتعرض لهجوم المرجفين من العرب المستغربين ، وإذا كان هجوم المستشرقين يهدف إلى نفي الأصالة عنها ، فإن هجوم المرجفين العرب يهدف إلى تجريد المصطلحات والقيم الإسلامية من معانيها الإسلامية ، وإلباسها مفهومات جديدة مغايرة لدلالتها الإسلامية بغية قطع هذه الأمة عن جذورها التاريخية الإسلامية ، وتغيير مسارها الحضاري بعيداً عن الاسلام العظيم مصدر قوتها وازدهارها . وربما كانت لنا عودة لتتبع هؤلاء المرجفين في محاولاتهم اليائسة للنيل من هذا الدين وقيمه الخالدة .

والحمد لله رب العالمين

الفهـــرس

رقم الايداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
(٣٢٦) / ٦ /١٩٨٣